مطبوعات الجديد

في رحاب الله



أحمد بهجت

مطبوعات الجديد

رئيس التحرير
د . رشاد رشدي

العدد الرابع عشر		ابريل ١٩٧٣


الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٣

في رحاب الله

أحمد بهجت

اهــداء

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله وشهدائه .. يحتل أبى مكانته فى قلبى ..

ليست الابوة هى وحدها السر فى اعزازى له .. ثمة سبب آخر ..

يقول الصوفية فى الحب « ان تهب كلك لمن احببت ، فلا يتبقى لك منك شىء » .

ولقد عاش أبى حياته مدرسا يهب نفسه لتلاميذه وأسرته ووطنه .. حتى لم يعد باقيا لنفسه شىء من نفسه ..

الى أبى

محمد بهجت

اهدى هذا الكتاب .. اعترافا بالفضل وحبا .

أحمد بهجت

مقـدمة

ليس لى من فضل فى هـذا الكتاب غير اختيـار مادته من كتب المحققين والصوفية ، ربما كنت أقول رأيا هنا أو هناك ، وربما قمت بتبسيط معنى أو فهمه بشـكل خاص ، وربما كان عقلى يفرض على اختيـار أشياء ونبـذ أشياء ، ويقـوم بغربلة ما أقرأ ، غير ان الأصل فى الكتاب انه مختارات مما قرأت فى التصوف .

المشكلة ان التصـوف ليس ثقافة توسـع آفاق العقل ، انما هو تجربة روحية تتصل أشـد الاتصال بالسلوك ، التصـوف تذوق خاص ومشـاهدة بعينى فؤادك انت ، لا يغنى عنك أن يرى لك انسان آخر أو يتذوق لك .

نقول هـذه الكلمة اعترافا بالحق ، وكى لا يظن أحد من قراء الكتاب ان كاتب هـذه السـطور يدعى لنفسـه فضل خوض تجارب الصوفية ، ولكى لا يظن القـارىء نفسـه انه قد خاض تجـاربهم لأنه قرأ فى التصوف .

بعد هـذه الكلمة .. نريد أن ننبه القـارىء الى صعوبة الكتاب ..

الكتاب بلغته واسلوبه ومعانيه يحتاج الى جهـد

عقلى ومعاناة .. أنه يتحـدث عن الصـــوفية قليلا ، ويستشهد بأقوالهم معظم الوقت .. وكان المفروض أن يحدث العكس ، غير اننى اخترت المغامرة لسبب هام .

ان الصوفية كلمات صعبة . غير انها اذا عولجت بالقراءة والاحساس والتذوق وطبعها المرء فى قلبه .. فانها قادرة على تغيير الانســان .. بينما الكتــابة عن التصوف دون استشهاد بكلمات الصوفية ، أمر يدخل فى نطاق الثقــافة الصــوفية التى لا تغير من ســلوك الانســان . ونحب أن نطمئن القــارىء الى أن فهمنا للتصوف هو الفهم القديم السنى الذى يرفض اعتبار شطحاتهم جزءا من الدين .. وانمــا يلحقها بالفن .. أما ما اتفق مع كتاب الله وسنة رسوله فذلك هو وحده المقبول عندنا .

ولعل هــذا هو السر فى اعجابنا الخاص بالغزالى والجنيــد والشــاذلى وكل أئمــة التصــوف السنى القديم ..

والاصل ان التصوف هو الابن الشرعى للزهد .

ولم يكن الزهد فى العصر الاسلامى المبكر حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهبا من المذاهب ، ولا نظاما جماعيا ، بل كان نزعة فردية رائدها الدين وحده ، نزعة اســتمدت وجـودها من القرآن الـكريم وسنة رســوله .

والحقيقة ، ان المسلمين فى هذا العصر الأول ، كانوا منصرفين الى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوته ، أكثر من انصرافهم الى احياء الزهد والاعتكاف ، وكان

الجهاد وبذل النفس فى سبيل الله ، هو أكبر شرف يناله المسلم .

روى عن النبى قوله : «لكل نبى رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد» . وقال عليه الصلاة والسلام « مرابطون الى يوم القيامة » .

والظاهر من سير بعض كبار المجاهدين فى الاسلام ، ان الجهاد كان ينظر اليه بنفس النظرة التى نظر بها فيما بعد الى الزهد ، ولعل هذا يفسر لنا كيف استبدل المسلمون بالجهاد فى سبيل الله هذا العكوف فى صوامع .

ومع تقدم الدولة الاسلامية فى السن ، سرعان ما تحول هذا الزهد الى زهد عميق منظم ومعقد ، وأصبحت له حياة ومراسيم وقواعد وشروط ومريدون وشيوخ ، وبذلك أصبح الزهد حركة دينية واتجاها خاصا فى الحياة ، كما أصبح ظاهرة جماعية منظمة داخل صوامع أشبه ما تكون بصوامع الرهبان المسيحيين .

تحول الزهد الى تصوف ، استغرق ذلك التحول زمنا ، وتعاونت على ذلك كثير من المؤثرات ، وبعد ان كان مصدر الزهد الوحيد هو القرآن والسنة صارت مصادر التصوف عديدة ، صار هناك علم الكلام والأفلاطونية الحديثة والتصوف الهندى والمسيحية .

ولهذا السبب يقول ابن الجوزى : « التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، ولكنهم ذموا التصوف .

ولقد قيل كلام كثير عن التصوف .

قيل ان التصوف هو البحر الهائل الذى غرقت فيه سفن الجهاد فى سبيل الله ، واستبدل المسلمون بالموت فى الصحارى المحرقة لنشر الاسلام ، متعة الفناء فى الله تحت الظلال الوارفة فى الحدائق .

وقيل ان التصوف هو هذا الركام الهائل من التصورات والسبحات والشطحات والأذواق والمشاهدات والتجليات ، والتصوف بذلك ثروة لغوية وأدبية وفنية ولكنه خسارة للاسلام والمسلمين .

قيل هذا الهجوم كما قيل دفاع كثير عن التصوف ، قال معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ : التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، وقال بشر ابن الحارث الحافى المتوفى ٢٢٧ : الصوفى من صفا قلبه لله .

وقال ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ :

الصوفى اذا نطق أبان منطقة عن الحقائق ، واذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق .. أى ان الصوفى بين حالين اما أن يتكلم أو يلزم الصمت ، فان تكلم لم يقل الا حقا ، وان سكت عن الكلام نطقت جوارحه بما ينبىء عن انه قطع علائقه بهذا العالم ، فهو مشغول بالله فى الحالتين ، حالة نطقه وحال سكوته .

والحقيقة ليست ضائعة بين خصوم التصوف وأنصاره ، فان حجة الاسلام الامام الغزالى قد تكفل ببيان الحق فى الأمر ، فقال فى الصوفية بعد ان درس كتبهم ووقف على أقوالهم :

« وظهر لى ان أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالتذوق والحال ، وتبدل الصفات ، فهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال » .

وهذه الشهادة الصريحة من حجة الاسلام بأن التصـــوف هو فى صميمه تجربة روحية ، وانه شيء مختلف عن العلم وعن الفلسفة ، وانما هو وليد العمل والمجاهدة النفسية ، هذه الشـــهادة الصريحة تضع التصوف فى مكانه الصحيح ، وتقدمه بحجمه الطبيعى وتقول لنا ما نأخذ منه وما ندع .

وجدت نفسى منساقا الى الرســـالة القشـــيرية للامام عبد الكريم القشـــيرى .. فاخترت منهـا أجزاء يضمها هـــذا الكتاب الصغير ، مدركا أن رســـالة الامام القشـــيرى لعبت دورها العظيم فى مقـــاومة الادعيـــاء والدخلاء والمدلسين والمضـــللين .. يقول د . ابراهيم بسيونى فى رسالته للدكتوراه عن القشيرى :

« نستطيع أن نتصور أى دور تلعبه الرســالة فى المقـــاومة ، فهى تعبر عن مرحلة زمنيـــة متـــأخرة ، استشرى فيها داء التضليل ، حتى وصل الى تهديد أخص خصائص الدين ، أى التوحيد .. ولهذا لا يكاد يخفى على قارىء الرسالة منذ ســـطورها الاولى الى نهايتها حرص القشيرى على تنقية التوحيد الصوفى من كل دعوى تهـــدده أو تشـــط به ، حتى ولو كان التعبير عن ذلك مغلفـــا بغشـــاء من الصـــدق الزائف البراق ، فهو ما يفتأ يميط اللثام عن هـــذا كله ، وما يفتأ يوضـــح أن أحكام الشريعـــة وجوهر العقيدة هى

عمدة الدخول الى الطريقة ، وبدونها ، أو بالتفريط فى شيء منها ، لا يكون خير ولا محصول ولا وصول » .

اعتمدت الى جوار كتب القدماء على كتب الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور أبو العلا عفيفى والدكتور ابراهيم بسيونى والدكتور عبد القادر محمود ، والدكتور محمد مصطفى حلمى وعديد من كتب أساتذة الجامعه وعلماء الاسلام .. أسأل الله لهم جميعا القبول والرضا .

بقى أن يسألنى القارىء عن علاقتى — كرجل يعمل فى حقل الأدب — بدنيا التصوف .. الجواب أن علاقتى مزدوجة ..

بوصفى مسلما ارى من واجبى أن احب كبار العاشقين للاسلام ، وهؤلاءهم الصوفية ، وبوصفى كاتبا .. أرى الصوفية أدباء من طراز متفرد لا مثيل له .. وليس هذا الرأى اكتشافا وصلت اليه .. أن عديدا من كلماتهم وكتبهم لو لم تكن كتبا فى الدين لكانت كتبا فى الأدب العميق والحكمة البالغة . والامام القشيرى كان كاتبا عبقريا ، وابن الفارض كان شاعرا عظيما ، ومعظم الصوفية كانوا أصحاب أقلام ومشاعر عميقة ..

في الانسان

قال تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » .

بهذه المشيئة المطلقة العليا أراد الله عز وجل أن يسلم الكوكب المسمى بالأرض للمخلوق المنحدر من نسل آدم .

ويزيد الله تبارك وتعالى فى تكريم آدم فيأمر ملائكته بالسجود له .

« **واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا** » .

ويزيد الحق عز وجل فى تكريمه لآدم وزوجه فيسكنهما الجنة .

« **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** »

حتى اذا مرت بآدم تجربة العصيان وعرف عدوه الذى رفض السجود له وعرف مسئوليته فى اخراجه من الجنة .. شاءت الارادة الطليقة العليا أن تسلم الأرض للانسان .

« **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين** » .

أى تكريم للانسان أن يعلن الله عن استخلافه له فى الملأ الأعلى ، ثم يأمر ملائكته بتحيته ثم يسكنه

الجنة ، ثم يقبل توبته بعد عصيانه ويغفر له ، ثم يهبطه الى الأرض وقد سخر له ما فى الأرض ، ثم لا يدعه وشأنه ليهتدى بعقله الى خالقه ، وانما يرسل اليه بالرسل والكتب والآيات .. أى تكريم للانسان .

قال تعالى : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » .

هذا التكريم الالهى لنا، كيف نتلقاه ؟.. فى عصور انهيار الفكر الاسلامى ، كانوا يتلقونه هكذا ، ينظرون فى آيات النشأة الأولى ويتساءلون : كيف كلم الله الملائكة ، أين كان ذلك ؟ وأين هى الجنة التى أسكنها آدم ؟ .

بمعنى أنهم كانوا يتركون ما تقرره الآيات من حقائق على الأرض ، وما تخلقه من تصورات فى الحياة ويحلقون بعقولهم فى منطقة الغيب ،وهى منطقة أسدلت عليها الحجب والستائر الكثيفة .. وليس من طبيعة العقل البشرى أن يبحث فيها .

وفى عصور ازدهار الفكر الاسلامى يدعون جانبا منطقة الغيب ، وينظرون فيما توحى به الآيات من قيم وما تقرره من اعتبارات ، وأول اعتبار تقرره أن الانسان حر ومسئول عن حريته .. أنه حر فى أن يفعل ما يريده ويتحمل مسئوليته .. يقع ذلك فى نطاق المشيئة الالهية . وتحت نور العلم الازلى .. ولكن علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من تصرفات العبد ،لايعنى أنه قهره على هذه التصرفات أو دفعه اليها دفعا .. حرية

الانسان اذن مكفولة ولو لم يكن آدم حرا لما استطـاع أن يرتكب ما نهاه الله عنه ويأكل من الشجرة ٠

أول اعتبـار تقرره الآيات اذن هو حرية الانسان واختياره ومسئوليته ٠ الاعتبار الثاني ان باب التوبـة مفتوح أمام من يريد ٠٠ قال تعالى : « **فتلقى آدم من ربه كلمات فتـاب عليه انه هو التـواب الرحيم** » ٠٠ الاعتبار الثالث أن الانسان بعد هبوطه الى الأرض قد صار سيد الأرض ـ قال تعالى : « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » ودوره فيها هو الدور الأول وعليه حين يترك الحياة أن يتركها أفضل مما وجدها عليه عندمـا ولد ، ولا يكون ذلك ممكنا الا باتصال الانسان ببارىء الحياة ومبدعها ، ورجوعه دائما الى الله واستسلامه له واستمداده منه ٠

ومعرفة الانسان لربه وكرامته على ربه هما ضمانه الوحيد في وجود انسانى كريم ، وهما الوسيلة الوحيدة الى العـزة ، « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** » وعندما يعرف الانسان معـنى التعبد لله وحده يعرف معنى العزة ٠٠ عزة تتمثل فى ألا يذل جبهته لغيره أو يحنى رأسه لسواه ٠٠ بذلك وحده يتحرر الإنسـان من عبادة المخلوقات الى عبادة الخالق . وينطلق بفكره من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ، ويستبدل بذل سؤال الناس عزة الطلب من رب الناس ٠

في الكتاب

قال تعالى :

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . »

كتاب هذه الأمة المسلمة هو القرآن ، عرفه علماء الأصول ـ وهو الغنى عن التعريف ـ بأنه الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ العربى المنقول بالتواتر ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس .

وقال الشافعى فيه : « كل ما أنزل الله فى كتابه جل ثناؤه رحمة وحجة ، علم من علمه ، وجهل من جهله ، لا يعلم من جهله ، ولا يجهل من علمه . »

ولقد بدأ تنزيل القرآن فى شهر رمضان .. حين اتصل الملأ الأعلى بالأرض ، واذن الله للروح الأمين جبريل بحمل الرسالة الخاتمة وتكليف نبيها ، وعلى امتداد الأيام والشهور ، كان جبريل عليه السلام يتدارس القرآن الكريم مع النبى . وفى البداية كان الرسول يسارع بالقراءة مع جبريل خشية أن يفوته شيء ، فصرفه الله تعالى عن هذا بقوله : : **«ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً »** .

وعد الحق تبارك وتعالى بحفظ ما ينزل على

الرسول وتفهيمه له فقال عز وجل : «**لاتحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه** » ٠

ولقد نزل القرآن منجما مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة بمكة وعشر سنوات في المدينة ٠ وفي مكة كانت معظم الآيات عن القواعد الكلية كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وفي المدينة استكمل القرآن أحكامه التكليفية ، واستكمل الله تبارك وتعالى تشريعه للأمة الاسلامية ، ولزمتها الحجة الى يوم القيامة ٠٠ ولم ينتقل الرسول الى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن مكتوبا حسب ترتيبه الحالى فى جريد النخل والسعف الغليظ وقطع الجلد وصفائح الحجارة وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاء والابل ٠ بعد ذلك جمع بترتيبه الذى رتبه جبريل عليه السلام مع النبى ٠٠ ونشر فى عصر عثمان فى مصحف واحد سمى « الامام » ٠

وقد تساءل الذين لم يؤمنوا بالقرآن عن علة نزوله على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وقالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، وذلك من قبيل تعنتهم ورفضهم للدعوة ، وقد كان لنزول القرآن بهذه الكيفية حكمة عليا تحدث الحق عنها فقال عز وجل : « **وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ٠

والقرآن هو قانون الاسلام الأعلى ، والسنة

هي تفسيره وتطبيقه ، والنبى عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعون وتابعو التابعين هم النماذج التى يخلقها القرآن من الرجال حين يخلق رجالا ٠

ينبنى على كون القرآن كتاب هذه الأمة المسلمة وقانونها الأعلى ، أن المسلم مكلف باحترام هذا القانون ، ولا يكون احترام القانون بتقبيله والتبرك به أو الغناء به في المحافل ، انما يكون احترام القانون بتطبيقه وتنفيذه وهيمنته على الحياة وأقدار الناس ٠٠ وليس أعظم سخرية من قوم يتبركون بقانونهم ويعلقونه ولكنهم لا يعملون باحكامه ولا يقيمون تشريعه وتنطبق عليهم جريمة هجر القرآن ، قال تعالى: «**وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا** » لا تحسب ان الكلمة تنطبق على أحد أكثر مما تنطبق على كثير منا اليوم ٠٠ ولا نحسب اننا نستحق الرحمة الا اذا هجرنا الهوى وعدنا للقرآن ٠

فى السنة

السنة فى اللغة هى الطريقة المعتادة ، حسنة كانت أو سيئة .

والسنة فى اصطلاح الأصوليين هى ما أسند الى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ..

والسنة حجة على المسلمين ، وانكار السنة أو انكار حجيتها كفر بصريح النص القرآنى .. يقول تعالى : « **قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين** » .

وللسنة مكانتها بالنسبة الى القرآن، ولها مكانتها بالنسبة الى التشريع ، فهى المصدر الثانى بعد القرآن للاسلام ، وهى المصدر الثانى للاسلام باعتباره عقيدة وتشريعا وأخلاقا ..

قيل لمطرف بن عبدالله : لا تحدثونا الا بالقرآن . فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .. يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس هناك من ينكر انه أعلمنا بالقرآن الذى أنزله روح القدس على قلبه .

وقد وجد بين طوائف المسلمين من تبع المستشرقين وهمس بالشكوك حول حجية السنة ، ومقصده من ذلك

نسف الطريق الى القرآن الكريم ، لأن السنة هى المبينة للكتاب الكريم وهى المفسرة له ٠

وكان مما أثاروه حول السنة ان القرآن الكريم فيه بيان لكل شيء ٠ وبذلك نستغنى عن بيان السنة لأن الله تعالى يقول : « **ما فرطنا فى الكتاب من شيء** » ويقول تعالى : « **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء** » والرد على ذلك يسير ، فان « **من شيء** » هنا تعنى أصول الشريعة كالصلاة التى فرضها الله تعالى ولم يبين عدد ركعاتها ولا أوقاتها ولا كيفية أدائها وترك للرسول ذلك ٠ ولا شك ان أصول الشريعة قد بينت فى القرآن الكريم ، ولم يفرط الله فى شيء منها ، وأيضا فان ((**كل**)) التى ذكرت فى قوله تعالى ((**تبيانا لكل شيء**)) ليس المراد بها كل شيء من أحكام الشريعة وانما المراد بها كل شيء من الأصول ٠٠ وانما جاءت السنة لبيان دقائق هذه الأصول لقوله تعالى : « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » ٠

كما ان « **كل** » فى الآية هى من باب كل التى قصها الله تعالى علينا فى شأن الريح التى أرسلها على ثمود ٠ قال تعالى « **ريح فيها عذاب اليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها** » ، ولم تدمر هذه الريح السموات والأرض بل لم تدمر غير ديار ثمود ٠

وقد أثبتت الدراسات الاسلامية الحديثة ، ان السنة قد دونت فى القرن الأول على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة الاجلاء ، وكان المظنون انها دونت فى القرن الثانى أو الثالث ٠ ولقد وقف المستشرقون من السنة موقفا ينطوى على العداء المقنع

الذى يرتدى مسـوح الدقة العلمية ، وكان أشـد المستشرقين خطـرا وأكثرهم بعـدا عن الحقيقة هـو المستشرق اليهودى المجرى جولد تسيهر ، فقد راح ينقل الكلام من مواضعه ويحرف فى السنة ويلقى الشكوك والظلال على رجالها ، كجزء من استمرار حملة الغرب على أحد منابع قوة الدين فى الشرق ، وتبعهم فى ذلك بعض علماء المسلمين فى الشرق ، الا أن الله تعالى قيض لهؤلاء المستشرقين من يمحص قولهم ويثبت فساده وغرضه .

وليس معنى هذا ان السنة قد خلت من الوضع أو التحريف ، ولكن هذا كله قد وجد علماء اجلاء تصدوا للأحاديث التى دست على النبى صلى الله عليه وسلم وبينوا عدم صحة نسبتها اليه .

ولقد كان سلفنا الصالح يهتم بالاسناد ، أى بهؤلاء الذين رووا الحديث واحدا عن واحد حتى وصلوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الى أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، ولقد اهتموا بالاسناد الى درجة أن جعلوه من الدين فقال الامام الزهرى : « الاسناد من الدين » .

والسنة هى الرحمة المهداة الى الكافة وهى الدعوة الى مكارم الأخلاق .

قال الرسول : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقال : « انما أنا رحمة مهداة » ، وقال الله عز وجل : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . »** .

اعجاز القرآن

قال الغزالى :

« القرآن في الدلالة على الله تعالى كون ناطق ، كما ان هذا الكون الضخم قرآن صامت وكلاهمـــا ينبثق من ذات واحدة ويهدف الى غاية واحدة » .

لكم نحب أن نقف وقفة عند جملة الغزالى هذه .

القرآن فى الدلالة على الله كون ناطق . وهو كون معجز نزل على أمة العرب بلغتها فى وقت كانت اللغـة العربية فيه فى أوج ازدهارها . وجاء القرآن بلغة عربية يعرفها الذين وجهت اليهم ، ورغم هذه المعرفة كان هناك فارق هائل بين لغة القرآن ولغة العرب .

فرق يتمثل فى اعجاز لغة القرآن ، وكون هـذا الاعجـاز يتجاوز قمة لا تصل اليها عيون البشر فضلا عن ألسنتهم ، ما هو بالشعر ، ولا هو بالنثر ، ولا هو بسجع الكهان ولا هو بانتاج انسانى ، ولا هو بالسـحر الذى يعرفه العرب أو يعرفه غيرهـــم ، ان فى كلماته شيئا معجزا على أى حال .

ما هو السر فى اعجاز القرآن .

كان هذا هو السؤال الذى طرحه الفكر العربى على نفسه وقدم له آلاف الاجابات المختلفـة على طول مسيرة هذا الفكر .

فى البداية قيل ان اللفظ معجز فى ذاته ، ومعجز بمعناه ، ومعجز بما يحمله من حكمة · وقيل انالاعجاز فى تشريعه العام المحكم الذى يتفق مع جميع الأزمنة ويصلح لكل الدهور والعصور ·وقيل ان اعجازه يصدر عن نبوءاته الغيبية · وقيل ان اعجازه ينبع من علومه الكونية · وقيل ان اعجازه يتمثل فى موسيقاه الداخلية . وقيل أن اعجازه هو تصويرهالفنى للمشاهد والاحداث يعرضها فاذا نحن أمام أشخاص يتحركون أمامنا أحياء كما كانوا بملامحهم النفسية وأعماقهم الدفينة ، واذا نحن أمام مامضى · أو أمام ما لم يأت بعد، مشخصا متحركا ناطقا مبينا · أن القرآن يصف الجنة فنحس أننا نتحرك داخلها ، ويصف النار فتقشعر الجلود وتخشع القلوب ، ويصف ما كان من أمر موسى وفرعون فنحس أننا نعيش ذلك العصر داخل نفوس أبطاله لا خارجها فى الحياة ، ويشرع القرآن فاذا الرحمة والعدل والحب والسلام تولد من تشريعه للعباد ·

ويصمت القرآن فى نفوس الناس ، أو يبعد عن الحياة أو ينحى عن توجيه أقدار الناس ، فاذا الأرض تئن من الظلم والقسوة والخراب وتلعن اليوم الذى ولدت فيه ، فاذا عاد القرآن الى النفوس أحياها بعد موتها مثلما تحيى المياه الأرض بعد موتها ·

كل هذه الأسباب التى تقال فى اعجاز القرآن صحيحة وربما يكون هناك سبب آخر كشف عصرنا عنه ، ذلك هو وجود أكثر من عمق داخلي لكلمات القرآن وآياته ، وعلى قدر اختلاف درجات الناس من

الوعى والثقافة والعلم والفن فان كل انسان لا بد أن يلتقى بهذا الاعجاز ٠

ان الأمى يسمع القرآن فيفهم دعوته الى عبادة الله وتوحيده ، ويفهم تشريعه لأنه سهل ، والمثقف يقرأ القرآن فيرى وراء الدعوة الى قصر العبادة على الله معنى انسانيا رفيعا هو تخليص البشر من الطغاة واعلانه لحرية الانسان وحقوقه ، والعالم يقرأ القرآن فيجد فى آياته معجزات علمية لم تكشف عنها الحياة الا منذ قرنين وهى ثابتة فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا،ورجل الفن يقرأ القرآن فيروعه هذا التجسيد للمشاهد وهذا التحريك لها وهذا التصوير الفنى الذى يشترك فيه اللون والحركة وموسيقى الحوار ونغم العبارات ... أيضا تروعه هذه الزوايا التى يعرضها الله تبارك وتعالى فى كل مرة بطريقة تختلف ليستخلص منها عباده عبرة تختلف ٠

وينظر المتصوف فى القرآن فاذا هو أمام أكثر من دنيا تبدأ بالتوبة وتمر على الحب وتنتهى بالفناء ، وهكذا تجد كل طبقة من طبقات الوعى والمعرفة فى القرآن عمقا معجزا تسيح فيه بالعقل ملايين السنين ٠

ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأت النظرة العلمية فى الحضارة العربية ، ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأ الحب لله أو التصوف ٠

فضل الاسلام على الحضـــارة

« أنا جاليليو جاليلى ، ابن الراحـــل فنسنزيو جاليلى الفلورنسى ، عمرى ٧٠ سنة ، حضرت بشخصى للمحكمة ‥ وراكعا أمامكم ‥ أى قضاتى المقدســون والكرادلة ، أى محققو المحـــكمة الكنسية العـــالمية المختصة بالهرطقة والكفر ‥ أقسم اننى صدقت فى الماضى ، وسأصدق فى المستقبل ، كل ما تقـــوله كنيسة روما الكاثوليكية المقدسة وتعلمه للناس أو تعظ به ، ‥ كما أعلن انكارى للرأى المدان الذى ناديت به ‥ وهو أن الشمس مركز العـــالم ٠ وان الأرض هى التى تتحرك حولها ٠ وبذلك أعود لرأى الكنيســـــة وهو ان الأرض مركز العالم ‥ »

هكذا كانت كلمات جاليليو يوم ٢٢ يونيو سنة ١٦٣٣ ميلادية أمام المحكمة الكنسية التى عقدت له وقد قدم أمامها بتهمة عقوبتها الاحراق حيا ٠

هذه القصة السريعة تصور موقف الكنيسة الأوربية من العــلم فى القرون الوسطى ، وهو موقف كان سببا فى فصل الكنيسة عن الدولة ، كما كان سببا فى تأخر الدولة والكنيسة معا ٠ ولو تأملنا موقف الاســـلام من العلم فسوف نراه مختلفا كل الاختلاف ٠ فالاسلام هو العلم الكلى ، وهو يقدر العلم الجزئى ويدعو اليــه ويعتبر التخلف فيه خطيئة دينية ٠ ولعل هذا هــو

السبب الذى دعا بعض حكام المسلمين القدامى الى تنحيه الدين عن مركز القيادة كى يستقر لهم وسط دنيا الجهل أمان الحكم .

ولقد افتتح الاسلام عهد الرشد العقلي بنزوله على نبى أمى ، وقوله في أول كلمات الرسالة الاسلامية : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » .. ثم أمره تعالى : بعد ذلك لنبيه الكريم .. « **وقل رب زدنى علما** » .

وليست الحضارة الغربية التى تسود العالم اليوم بتقدمها العلمى الهائل .. ليست هذه الحضارة فى أحد جانبيها الا بعض فضل العرب على أوربا بعد نزول الاسلام على العرب .

ان الحضارة الغربية ـ ككل حضارة ـ لها عنصراها أو جانباها : العنصر المادى أو نظرتها الى المادة وتعاملها معها ، والعنصر النظرى أو نظرتها الى الفكر وتعاملها معه .

ولقد سادت الحضارة الغربية بعنصرها المادى أو تعاملها مع المادة ، ابتداء من الثورة الصناعية الى عصر تحطيم الذرة وسفن الفضاء والصواريخ .

أما جانب هذه الحضارة الفكرى فلم يعد يلهم أحدا من العالم شيئا ، ونظريات السياسة والأخلاق والفكر تتغير يوما بعد يوم ولا تستقر على حال .

ورغم الثراء العظيم التى نالته الحضارة الغربية في جانبها المادى نراها فى جانبها النظرى والروحى أقرب ما تكون الى الشحوب والفقر .

ولكن ما هو مصدر ثراء العنصر المادى من هذه الحضارة ، تثبت الدراسات العلمية ان الاسلام هو صاحب الفضل فى ثراء الحضارة الغربية فى جانبها المادى ، وانه سبب خصوبة هذه الحضارة ، ذلك ان التفكير العلمى الحديث أو منهج الملاحظة والتجربة واستقراء القوانين بعد ذلك .. هذا المنهج نشأ فى ظل الاسلام وقدمته الحضارة الاسلامية الى الغرب .

ان روجيه بيكون يقرر فى كتابه ان ابتكار المنهج التجريبى كان من صنع علماء المسلمين كالكندى والبيرونى وابن سينا وابن الهيثم كما يقرر ان المنهج الاسلامى الذى نشأ فيه هؤلاء العلماء ، كان هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقيقية التى تغيرت أوربا بعد أن أخذت به .

فضل الاسلام على العلم

يحتل تمثـــال الامام الغزالى فى الفاتيكان مكانه كقـــديس وعالم تعتبر الكنيسة فكره مؤهلا لاعتباره قديساً .. ويتحدث علماء أوربا عن البيرونى فيعتبرونه أكبر عقلية علمية ظهرت على وجه التاريخ .: ويرون مراجعه عن العقائد فى الهند من أوثق المراجع فى عقائد الهند ، كما ان صور ابن الهيثم وتماثيله لم تزل قائمة فى قاعات المحاضرات بكليات العلوم فى أوربا ودول الغرب .. ولم تزل نظرياته فى الضوء بداية للبحث فى الضوء . ولم يزل ابن سينا معتبرا من طلائع علمـــاء الطب الدارسين فى الجسد الانسانى ، ولم تزل نظريات الكندى فى الطب والموسيقى موضع دراسة الغرب اليوم، ولم تزل تجارب ابن حيان فى الكيمياء جزءا من تاريخ الكيمياء فى الغرب ، وتعرف أوربا اليوم عن علمائنا المسلمين أكثر مما نعرف عنهم فقد أخذت عنهم واستمرت بينما لم نأخذ نحن عنهم ولم نستمر ، ولقد كان العلم بمعناه المادى الأوربى الحديث أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم ، ولم يكن العلم العربى وحده هـــو الذى بعث فى أوربا الحياة ، بل ان مؤثرات أخـــرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت أشعتهـــا على الحياة الأوربية .

يقول روجيه بيكون ...

« أن ما يدين به عالمنا لعلم العرب لا يكمن فيمـــا

قدموه الينا من كشوف مدهشة فى دنيا المادة ·· بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر ، انه يدين لها بوجوده نفسه ، ولقد كان العالم القديم خلوا من العلم ولم يعرف اليونانيون (فى علوم المادة) هؤلاء الأساتذة المتأنين الذين يجمعون المعلومات ويستخدمون المنهج التجريبى كما عرفه المسلمون · عرف اليونانيون ذلك فى العلوم النظرية كالفلسفة والادب والفن والجمال والاخلاق ، ولكنهم لم يعرفوا ذلك فى الطبيعة أو الكيمياء أو الطب أو الفلك ، وكان استخدام المنهج التجريبى فى هذه العلوم المادية مقصورا على العرب والحضارة الاسلامية » ·

وهذا الكلام الذى يقرره عالم جليل من علماء أوربا ليس موضع بحث العلماء الغربيين اليوم فهم يعترفون بذلك ·· لكنهم يقولون أن ذلك كان فى الماضى ·· أما الحاضر فلا يعرف غير حضارة الغرب وتقدم الغرب ·· وعلى من يريد التقدم أن يأخذ عنها · ويرى الدكتور عبد الحليم محمود ان هذه الدعوة خاطئة ومضللة ، خاطئة لأنها تحاول قصر العبقرية على الغرب وتحاول أن تجعل للاصالة والابداع أرضا محددة هى الغرب ، وهى مضللة لأنها تحاول أن تصرف المسلمين عن منابع القوة الحقيقية فى دينهم الى الحضارة الغربية ، ويرى أن الواجب علينا أن نسترد بضاعتنا التى أخذت منا ·· نسترد المنهج التجريبى ونعود الى طبيعتنا وأصالتنا فنخترع ونبدع ونكون من قادة الانسانية ، ونفضل أوربا فى شىء آخر ، نفضلها فى الأساس فنعمل بتوجيه من الله ، ونفضلها فى الغايات فنعمل لوجه الله تعالى ·

ولقد كان تقدير الاسلام للعلم هو السبب فى خلق البيئة العلمية . وهو السبب فى اكتشاف المنهج العلمى الحديث الذى سادتنا به أوربا حين اكتشفته وأحسنت استخدامه .

وتقدير الاسلام للعلم واضح من قصة آدم وكيف أسجد الله له الملائكة لعلمه بأسماء ما غاب عنهم ، وهو واضح من أوامر الاسلام المتعددة بالسياحة فى الأرض والنظر فى الكون والنفس بعد ذلك .. وهو واضح من أمر الله تعالى لرسوله : « **وقل رب زدنى علما** » . وهو واضح من قوله تعالى : « **شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط** » .

فجعل شهادة أولى العلم تأتى بعد شهادة الملائكة مباشرة . وهو واضح لقوله صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقا يبتغى به علما سهل الله له به طريقا الى الجنة » . «وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» . «وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .. وان العلماء ورثة الأنبياء وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم .. فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » .

فضل الاسلام على الشجاعة

من أحد أعماق القرآن الصافية نشأ المنهج العلمى أو التجريبى فى التعامل مع المادة ، ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأ المنهج الروحى فى التعامل مع ما وراء المادة ، أو التصوف .

سئلت عائشة رضى الله تعالى عنها عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن» والقرآن لا يعبأ بأن يقذف بكلمات الحق على بطش الطغاة بغير خوف ، فالقرآن هو الحق ، والحق لا يخاف الباطل

وبمثل خلق القرآن كان الصوفية يتعاملون مع الطغيان فى عصرهم . وكانت شجاعتهم دليلا على مدى التحرر العقلى والجرأة التى يؤتاها من يؤمن بالله حق الايمان .

ان ابن قتيبة الصوفى يتحدى ابن طولون دفاعا عن المظلومين ، فيرميه ابن طولون فى السجن ،ويمرض ابن قتيبة وتنهار صحته ، ويوجه اليه ابن طولون من يعرض عليه عشرة آلاف دينار مقابل أن يعلن الصوفى رضاه عن أعماله .. فيرد الصوفى: «والله لملك ابن طولون أهون عندى من كلمة باطل » .

ويقول أبو حازم الصوفى : «انما بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وانما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم » .

ويسقط الحلاج خلافة المقتدر الباغية هاتفا: «ليس من القوة الايمانية أن أرجع عن قولى فى الطاغية» . ويبيع الصوفى عز الدين بن عبد السلام قاضى مصر مماليك مصر وحكامها بيع الرقيق ليكسر أنوفهم يوم تجبروا على الخلق .

ويقول الصوفى عمر بن عبيد لأحد الخلفاء وهو يختال وسط حاشيته : « يا أمير المؤمنين ان هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا » .

ويستدعي الحجاج بن يوسف الثقفي جبار العراق يوما الصوفى طاووس اليمانى محاولا استمالته وارضاءه . ويخلع عليه عباءة ثمينة ، فيحرك الصوفى كتفيه حتى تسقط الخلعة ، ويأمر الحجاج الصوفى أن يحضر له المحبرة اشارة الى أنه سيكتب له بعطاء ، فيأبى طاووس أن يمد يده اليها ، ثم يسأله الحجاج مصرحا بعد فشل التلميح ، يا أبا الفضل أعليك دين ، وهنا يقول الصوفى نعم .. تساءل الحجاج مرتاحا : ما مقداره ؟ قال الصوفى : دين لربى .. أن أنذرك يوما لا تغنى فيه عنك من الله تلك السيوف التى تحيط بك .

ويقصد اليه ذات يوم أحد أبناء سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فلا يهتم بابن الخليفة ، ولا يلتفت اليه . فيقال له : ابن أمير المؤمنين . فيقول : أعرفه وقد أردت أن أعلمه أن لله عبادا يزهدون فيه وفى أبيه .

ويرسل ابن عربى خطابا الى السلطان الغالب بأمر الله يقول له فيه :

«فاحذر ان أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس اعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا يكن شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم ، واظهار المعاصى ، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة ، فان الله أقوى منك ، فيحتكمون فيهم بالجهالة والاغراض وانت المسئول عن ذلك .

« فيا هذا قد أحسن الله اليك ، فأنصف المظلوم من الظالم ، ولا يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك ، وسوى البلاد لك مع المخالفة والجور وتعدى الحدود ، فان ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات ، بامهال من الحق لا اهمال ، وما بينك وبين ان تقف بأعمالك الا بلوغ الأجل المسمى ، وتصل الى الدار التى سافر اليها آباؤك وأجدادك » .

وكذلك كانت شجاعة الصوفية ازاء جبابرة الارض وكذلك كانت شجاعة من كان القرآن خلقه ازاء من يستمد قوته من هواه ، ان من يدرك ان الله تعالى يضمن النصر للمؤمنين ، لا يخيفه أن يقذف بكلمة الحق فى وجه الطغاه .

قال تعالى : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » .

وقال عز وجل : «**كتب الله لأغلبن أنا ورسلى**» .

فضل الاسلام على الفن

قدمت الحضارة الاسـلامية للعنصر المادى من الحضارة الغربية ، ذلك المنهج العلمى لتسخير الطبيعة والكون ، فماذا قدمت حضارة الاسلام للجانب النظرى من الحضارة الحديثة ؟ ماذا قدمت فى دنيا الفلسفة والفن والأخلاق والجمال ٠

ربما كان أخطر ما قدمته الحضارة الاسـلامية هو الحب ٠

ولقد عرف العالم الغربى الحب بمعنى الرغبة الجسدية حتى القرن الثانى عشر ، ثم بدأ تأثرهم فى هذا القرن بوهج أنبعث من الصوفية الاسلامية ، وكان وصول الوهج الى أوربا هو المسئول عن ميلاد الحب بمعناه الحديث ، وأثر ذلك على الأدب والفن الاوربيين أعظم تأثير وأكمله ٠

يعتقد من يؤرخون للعلاقات الانسانية ان الظاهرة المعقدة التى يسمونها الحب فى الغرب ، قد استمدت كثيرا من أصولها من الشرق ، ولقد ولد هذا الحب خلال القرنين الحادى عشر والثـانى عشر فى جنوب فرنسا حيث التقى تيـاران انساب أحدهما من آسيا الصغرى وايران وجاء الآخر من العالم العربى ٠

يقول المؤرخ شارل سينيوبوس : « ان الحب من مخترعات القرن الثانى عشر» ٠ هذه العبارة التى رددها

الكثيرون بارتياب شديد وتساءلوا : ماذا كان الناس يصنعون قبل القرن الثاني عشر ؟ .. هذه العبارة الاخيرة فندتها دراسات كثيرة من بينها كتاب دني دي روجمون، فلفظة الحب التي نعني بها نحن العاطفة والهوى . لم تكتسب وجودها بمعناه الآن الا في القرن الثاني عشر .

وكان السبب ما أدخله الشعراء المتجولون «التروبادور» الذين ظهروا في جنوب فرنسا وأسبانيا ، وكلمة «تروبادور» قلب للكلمة العربية دور طرب ، ولم يلبث الشعراء المتجولون أن انتشروا في أوربا وتمكنوا من قلب مجرى الشعور وتطوير الفنون وتبديل العادات طوال قرون عديدة ، ولقد كتبت أعظم رواية حب تحت تأثير الشعر التروبادوري وهي رواية « تريستان وايزولت » .

ونتيجة لوقوع الحب في منطقة الخطيئة ، كانت النفس تتوق في القرون الوسطى الى تعبير جديد ، حمله اليها الشعراء المتجولون الذين يستقون شعرهم من الشعر العربي الذى ذاع في القرن الحادى عشر في الأندلس ، خاصة في قرطبة التى كانت مهدا لمذهب شعرى نبغ فيه ابن حزم وابن قزمان والمعتمد الاشبيلي .

ومن هذا الشعر العربي استعار جيوم دى بواتييه وتلاميذه الصيغ والموضوعات والأنغام لأغانيهم ، وأيدت هذه النظرية الابحاث التاريخية والادبية والفلسفية العديدة التى حملت الينا في خلال العشرين سنة الأخيرة أدلة وبراهين حاسمة على ذلك .

فقد ثبت ان جيوم دى بواتييه رحل الى الشرق في حملة صليبية وأقام فيه زمنـــــا طويلا وتزوج امرأة أسبانية واقتبس فنه من شعراء العرب الذين كانوا على مذهب قرطبة الشعرى •

ولقد كان شعر الحب عند عرب الاندلس المسلمين متصلا اتصـــالا شـــديدا بالمذهب الصوفى الذى يمثله الحلاج وروزبهان الشيرازى والسهروردى الحلبى وابن عربى الاندلسى ، وكان هؤلاء الصـــــوفية قد لجأوا الى صياغة الشعر فى الحب الدنيوى للاعراب عن حبهـم الالهى ، ويحس الباحثون فى الشعر التروبادورى بهذه اللمسة ، لمسة التصـــوف المهلك فى الحب ولمسة الفناء الغريب •

ولقد تأصل فى أوربا مفهوم الحب العذرى بعمق، حتى وقع كثير من الكتاب فى الخطأ وحسبوا أنه وجد منذ أقدم العصور • ولم يكن ممكنا قبل الاســـــلام أن ينشأ هذا الحب ، ذلك أن الاعتراف بوحدانية الاله وطلب النقاء يؤديان الىالاعتراف بوحدانية الحب ووجوب قصره على رجل واحد وامرأة واحدة • والاسلام يجعل الحب بمعنى الهوى رمزا وصورة للروابط بين النفس وخالقها •

هذه شهادة رجل يعتبرونه أصــــــدق المؤرخين للعلاقات الانسانية ، وهى شهادة تقول كيف استطاع التصوف الاسلامى أن يؤثر على روح الجمـــــال والفن والأدب والموسيقى فى حضارة الغرب بخلق ما نســـميه اليوم بمفهوم الحب العذرى .. ونحسب مخطئين انه وجد منذ أقدم العصور .

فضل الاسلام على حرية العقل

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الادلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى انه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم ، وأنهم له واليه راجعون .

«قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . »

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وطهر العقل من الأوهام الفاسدة ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لأحد الا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين، وفرض على المسلمين أن يقولوا كما قال نبيهم ابراهيم عليه السلام : انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :
« ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره ،وصار

الانســان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، ولم تعد معايير التفرقة بين الناس شيئا غير عملهم **((وان ليس للانسان الا ما سعى))** ، ولم يعد أكرم الناس هو أغناهم أو أقواهم أو أشدهم بطشا ، وانما صار أكرمهم عند الله أتقاهم .

وجاء الاسلام بتقاليد تشمل مبادىء المساواة بين الأرواح الانسانية أمام الله ، وتقرر أواصر الأخوة العالمية بين جميع المؤمنين ، بغير نظر الى العنصر أو اللون ، وبذلك قضى على آلاف النظريات السخيفة ، التى كانت تقرر السيادة للون دون لون ، أو عنصر دون عنصر ، أو دين دون دين .

يقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد :

« تم للنوع الانســـانى بمقتضى الاسلام أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما اســـتقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطره عليها .

« وقد قال بعض حكماء الغربيين من متــأخريهم ان نشأة المدنية فى أوربا انما قامت على هذين الاصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفســـهم ، وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان ، الا فى الجيــل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام »

ومن أخطر ما جاء به الاسلام ، رفعه الحجر عن عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، فقد أطلق الاسلام حرية العقل فى فهم ما جاء عن الله سبحانه وتعالى ، واتهم من يحمل الكتب السماوية بغير أن يفهمها أو يعمل بها بأعظم التهم . قال تعالى « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين .** »

كما حمل الاسلام على الأمية وتلاوة الالفاظ تعبدا بالأصوات والحروف ، قال عز وجل : « **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون .** »

وبهذه الدعوة الى الفهم ، فرض الاسلام على كل انسان أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كونه وما قرر من شرعه فى كتبه .

فى النعمة

يتساءل أبناء هذا العصر عن المعجزات ، وأعظم المعجزات هى نعمة الله علينا فى احكام الجسد واعجازه وابداعه، أن مخ الانسان لايتساوى مع العقل الألكترونى الا من حيث المبدأ ، ويختلف معه من ناحيــــة الدقة والتعقيد .. فبينما يستحيل وجود جهـــاز صـــنعه الانسان يضم بضعة آلاف من الصمامات والتوصيلات نجد الجهاز العصبى للانسان يحتوى على ١٥ مليـــــار خلية عصبية ..

قال الله تعالى ــ وهو أصــــدق القائلين : « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » .

يؤكد البروفيسير شنباينبوخ عالم الهندســـــة الالمانى أن الجهاز العصبى للانسان معقد مئــة ألف مرة عن كل النظم التكنيكية المعروفة على الأرض ..

ويقـــول العلمــــاء : لو تخيلنـــا ان فى مقدور الانسان أن يقوم برسم التوصيلات الخاصة بجهـــاز الانسان العصبى ، وذلك على غرار ما يقوم به الاخصائى التكنيكى حين يقوم برسم التوصيلات الألكترونيـــة . لو أمكن ذلك لاحتجنا الى ورقة تعادل مساحتهـــا عدة كيلو مترات مربعة ، وهذا قياس مستحيل فتوصيلات الانسان الخاصة بجهازه العصبى مجهولة تماما لنا ، ولا زلنا حتى اليوم رغم تقدم الدراسات الطبيعية نجهـــل

تماما أسرار عمل المخ ·· والمخ جهاز واحد من أجهزة الانسان العديدة ·

والى جوار ملايين العمليات الكيميائية والبيولوجية التى تحدث فى الثانية الواحدة فى جسم الانسان ، وتمثل نوعاً راقيا من أنواع التخصص الذى يجهله أهل الأرض ·· حتى لتقوم الكرات البيضاء بحراسة الجسم الى جوار ذلك تجيء معجزة هذا الصنع الفريد فى قدرته على انجاب مخلوقات مماثلة للمحافظة على البقاء ، وهذه خاصية يتميز بها تركيب الانسان عن سائر المصانع المعقدة ·· قال تعالى : «**افرأيتم ما تمنون· أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** » ·

يعتقد علماء الكيمياء أن تركيب المعدة المعجز وعملياتها الكيميائية التى تبدأ من استقبال الطعام وتنتهى بتحويله الى طاقة ·· هذه العمليات لو حاولنا تقليد عشرها على الأرض فسوف نحتاج الى معمل تزيد مساحته عن مساحة مدينة القاهرة ، وسوف نحتاج الى أجهزة ومواد كيميائية لا يكفى ذهب الأرض كله لشرائها ·· كل هذا التعقيد والتركيب خلقه الله فى حجم برتقالة صغيرة هى المعدة ·

ان نعم الخالق على الانسان فى نفسه لا تحصى ولا تعد .. ونعمه عليه فى الآفاق لا تحصى ولا تعد ·· وحين حاول بعض العلماء أن يعرفوا ما تقدم الشمس الينا من فائدة ، وحين حاولوا ترجمة هذه الفائدة الى مقابل مادى أو ثمن .. خرجوا بأرقام مذهلة .

ان الشمس تصب فى الفضاء فى الثانية الواحدة أكثر من أربعة ملايين طن من الطاقة ، لو وصلت كلها الى الأرض لجفت بحارها وانهارها ومحيطاتها ٠٠ ولأحرقتها فى ثوان ٠٠ ولقد شاءت رحمة الخالق ألا يصل الى الأرض من طاقة الشمس سوى أربعة أرطال فى الثانية ٠٠ فاذا كان علينا أن ندفع ثمن ما تمدنا به الشمس من ضوء وحرارة بلا مقابل ٠٠ فان علينا أن ندفع ٦٨٠ ألف مليون جنيه كل ساعة ٠٠ وهذا العدد كبير جدا لدرجة أن بعض الناس لا يستطيعون قراءته فضلا عن فهمه

ويتقدم العلم كل يوم ٠٠ ويعرف الانسان مزيدا من نعم الله عليه فى نفسه وفى الكون مصداقا لقوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فى الزهد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا ان تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك » ٠

قال الصوفيه فى الزهد : واذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بعدت عنك ٠

ويتفق الحكماء على أن الدنيا هى النفس وماهويت فاذا ترك العبد ما تهواه نفسه فقد ترك الدنيا ٠

قال تعالى : **(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب)** ٠

ولقد فهم خطأ من ترك الدنيا ان المعنى المقصود هو ترك الاشتغال بها والسعى فيها وهجرها للتعبد بعيدا عن مغريات الحياة ، وهذا الفهم خطأ من وجهة نظر الاسلام ومن وجهة نظر المصلحة العليا لأمة المسلمين سواء كان ذلك بالأمس أم اليوم ٠

هو خطأ من وجهة نظر الاسلام لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الاسلام » ٠

بلغ النبى يوما ان عثمان بن مظعون قد اتخذ بيتا فقعد يتعبد فيه فأتاه الرسول عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضادتى باب البيت الذى هو فيه ،

وقال : « يا عثمان ، ان الله عز وجل لم يبعثنى بالرهبانية (كررها مرتين أو ثلاثا) وان خير الدين عند الله الحنيفية السمحاء » .

ولو رجعنا لنشأة الزهد فى بداية التاريخ الاسلامي لاكتشفنا أن أحد عوامله كان ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعي وسياسي قائم ، ذلك ان اتساع الفتوحات الاسلامية وازدهار المسلمين وارتماء الدنيا تحت أقدامهم ، خلقت صراعا بين الايمان القوى والدنيا المقبلة ، وكان الحل هو الانزواء عن الدنيا ورياضة النفس على الطاعات .

كذلك حدثت فى القرن الاول من عهد الاسلام حوادث سياسية خطيرة مثل الحروب الدامية بين على ومعاوية ، وتبع كل هذا اضطهاد لآل البيت وتشريد لهم وتقتيل ، وكبت للحرية الشخصية لم يسبق له مثيل ، وأدخل ذلك الرعب فى قلوب المسلمين وقضى على شعورهم بالأمان ، وحرك فيهم نزعات العزلة والفرار من الحياة طلبا للسلامة ، وقدمت خلوات الزاهدين هذه السلامة والراحة .

وكانت النكبة الكبرى حين حل النظام الروحى الداخلى محل النظام السياسى الخارجى ، واستبدل الناس بالجهاد فى الدنيا جهاد الخلوات والعكوف على العبادة . ولقد كانت مأساة كبرى يوم ترك الاسلام مكانه فى قيادة البشرية وقيادة المسلمين .

ولقد منى الاسلام بالخصب الزائد فى نفوس الزاهدين الذين أصبحوا مدارس فيما بعد وطرائق ولدت منها الصوفية، وكان بقاؤه بالخصب هنا والشحوب

فى حياة عامة المسلمين .. كان هذا البقاء المزدوج سببا فى ضعف دنيا المسلمين ودينهم معا .

ضعف دين المسلمين لأن عكوف بعضهم على العبادة واقتصارهم عليها، فتح لتفكيرهم مزالق خطيرة فتحول الاسلام الى أشعار حب وأنغام مناجاة وذهول جذبة وانفراد وتوحش ، ولو يعد عملا يغير وجه الحياة .

كما ضعفت دنيا المسلمين لأنهم تركوا حقيقة الأسلام واكتفوا بقشوره ومراسمه وظاهره دون حقيقته ودعاهم ذلك الى عدم معرفة دورهم فى الدنيا وبالتالى عدم القيام به .

وهكذا أخذ عامة المسلمين بالقشور، وحاول خاصة المسلمين وأهل الخلوات النفاذ وراء اللب ، فلا أفلح الذين اخذوا بالقشور ، ولا وصل أكثر من حاولوا النفاذ وراء اللب ، وكان عدد الهلكى أكثر من عدد الناجين فى الحالين .

يقول الرسول : « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعة المال » . كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشرف الغيب بكلمته فيحس ما سيكون عليه حال المسلمين بعده اذ انقسموا فريقين : أحدهما يحرم الحلال كخاصة المسلمين العاكفين على خلواتهم ، والآخر يضيع المال والحياة كعامة المسلمين الذين يأخذون بمظاهر الدين دون حقيقته .

قال الرسول : « انما الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك » . ولكى يثق المسلمون بما فى يد الله أكثر من ثقتهم بما فى أيديهم

ينبغي أن يكون فى أيديهم شيء . ولقد أصـبحوا اليوم وليس فى أيديهم شيء من الدنيا ، ولعل الزهد المطلوب اليوم هو الزهد فى زهدهم هذا وعودتهم الى الله .

ان الله تبارك وتعالى يريد للمسـلمين أن يملكوا الدنيا ، ويكونوا من سادتها ، ويتحكموا فيها ، ويغيروا من شكل الارض والعلاقات الانسانية ، ثم ليزهدوا بعد ذلـك بقلوبهم فى الترف والتنعم ويـكونوا من رجال الآخرة .

فى النصيحة

عن أبى رقية تميم بن اوس الدارانى رضى الله تعالى عنه ، ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **الدين النصيحة** » قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ..

من الأحاديث الجامعة هذا الحديث ، النصيحة كلمة جامعة معناها ارادة جملة الخير .. ومعنى قوله « الدين النصيحة » ان النصيحة عماد الدين وقوامه ، كقوله : الحج عرفة ، أى عماده ومعظمه .

واما تفسير النصيحة وأنواعها فقال العلماء : النصيحة لله تعالى معناها منصرف الى الايمان به ، ونفى الشرك عنه ، وترك الالحاد فى أسمائه ، وذكره بصفات الجلال والكمال كلها ، وتنزيهه وتقديسه ، والقيام بطاعته واجتناب معصيته ، والحب فيه والبغض فيه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته والشكر عليها ، والاخلاص فى جميع الامور ، ودعاء الناس الى الحق والتلطف بهم .

قال الخطابى : وحقيقة هذه الأوصاف راجعة الى العبد فى نصحه نفسه ، فان الله سبحانه وتعالى غنى عن نصح الناصحين .

قال تعالى : « **ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ان الله لغنى عن العالمين** » .

واما النصيحة لـكتابه سبحانه وتعـالى فتكون بالايمان بأن كلام الله تعالى فى تنزيله لا يشبهه شيء من كلام الناس ، ولا يقدر على مثله أحـد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، والخشوع عند تلاوته .. قال تعالى : « **واذا قرىء القـرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** » . ومن النصيحة لكتاب الله تعالى الدفاع عنه.. والتصديق بما فيه.. واقامة أحكامه وشريعته ، قال تعالى : « **ومن لم يحكم بمـا انزل الله فاولئك هم الكافرون** » .

ومن النصيحة لكتابه تعالى تفهم علومه وأمثاله ، والاعتبـار بآياته ، والتفـكير فى عجـائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشـابهه ، والبحث عن عمـومه والدعاء اليه .

واما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسـلم فتصديقه على الرسالة ، والايمان بجميع ما جـاء به ، وطاعته فى أمره ونهيه ، ونصره حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، واعظام حقه وتوقيره ، واحياء طريقته ، واجابة دعوته ، ونشر هديه وسنته ، ونفى التهمة عنها والتفقه فى معانيها ، والدعاء اليها ، والتلطف فى تعليمهـا ، واعظامهـا واجـلالها والتأدب عند قراءتها ، والامسـاك عن الكلام فيهـا بغير علم ، واجلال أهلها .

أما النصيحة لأئمة المسـلمين وحكامهم ، فتكون بمعاونتهم على الحق ، وأمرهم بالحق ، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف ، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، والحرص على حقوق المسـلمين والافتاء بالحق .

يذكر تاريخ الافتاء فى القرون الوسطى للشيخ الامام محيى الدين النووى رضى الله عنه ، يذكر له التاريخ فتوى أجاب فيها بالحق ولم يخش فى الله لومة لائم .

لما خرج الظاهر بيبرس الى قتال التتار بالشام ، طلب فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال الرعية لينتصر به فى قتال العدو، فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال هل بقى أحد فقيل نعم ، بقى الشيخ محيى الدين النووى، فطلبه فحضر، فقال له: اكتب خطك وامضاءك مع الفقهاء ، فامتنع، فقال : ما سبب امتناعك، فقال الشيخ محيى الدين: أنا أعرف انك كنت فى الرق للامير بندقدار وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت ان عندك ألف مملوك كل مملوك له ثروة من الذهب ، وعندك مائتا جارية لكل جارية صندوق من الحلى ، فاذا انفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالملابس المجردة بدلا من الأوشحة الموشاة ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية .

أما النصيحة لعامة المسلمين فارشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم ، واعانتهم عليها ، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق واخلاص ، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم ، وان يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ، وان يدافع عن أموالهم وأعراضهم، وحثهم على اقامة تشريع الله داخل نفوسهم كى يقوم فى الحياة ذاتها .

فى الخوف

لا يصد عن نار الجحيم مع كونها محفوفة بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا الخوف من الله تعالى ٠
والخوف هو تألم القلب ، واحتراقه لتوقع المكروه عند الاستقبال ،وأخوف الناس لله أعرفهم بنفســـــه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أخوفكم لله » ٠

وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ٠٠

قال تعالى: « **انما يخشى الله من عباده العلماء** »٠
وقال عز وجل : « **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** » ٠

قال الفضيل بن عياض : اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ٠٠ فأنك ان قلت لا ، كفرت ٠ وان قلت نعم كذبت ٠٠ والخوف عند الصـــوفى هو ألم يكف الجوارح عن المعاصى ويلزمها الطاعات ، وما لم يؤثـــر الخوف فى الجوارح فهو حديث نفسى وحركة خاطر ٠ ولا يستحق أن يسمى خوفا ٠٠

قال العارفون بالله : اذا كملت المعرفة بالله أورثت جلال الخوف ، واحتراق القلب ، وظهر أثر الحرقة من القلب على البدن بالنحول والبكاء ، وعلى الجوارح بكفها

عن المعاصى والزامها الطاعات • وعلى الصفات بأن يقمع الشهوات ، كما يضير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف ان داخله السم •

قال الامام الغزالى : « ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل هو من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه » •

خص الله تعالى التقوى بالتكريم ، فأضافها الى نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**» . والتقوى هى الكف عن الذنوب والقيام بالطاعات بمقتضى الخوف . والله تعالى يأمر بالخوف ويجعله من شرائط الايمان قال تعالى : ((**وخافون ان كنتم مؤمنين**)) وقال : ((**ما لكم لا ترجون لله وقارا**)) اى لا تخافون . .

سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مغنى الآية : ((**الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** » أهو الرجل يسرق ويزنى •• قال : « لا •• بل الرجل يصوم ويصلى ويخاف ان لا يقبل منه » •

والخوف اذا ولدته الخشية وأثمر بعد ولادته التقوى كان خوفا يسقط الذنوب ويمحوها •

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع » •

والخوف من الله تعالى على مقامين : احدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه • فأما الخوف منه فهو

خوف العلمــاء وأرباب القــلوب العارفين من صــفاته ما يفيض الهيبة والحذر والخوف ٠

والخوف من الله يورث الانسان شجاعة لا حد لها على الأرض فلا يطأطىء رأسه لغير الله ولا يرجو سواه ٠ لما وضــع سيدنا ابراهيم صــلى الله عليه وســلم فى المنجنيق قال : حســبى الله ، فامتحن بظهور جبريل عليه الســـلام له وقد جاء يسأله : الك حاجة ؟ قال ابراهيم : «اما اليك فلا». وكان ذلك وفاء يحققه قوله : حسبى الله ٠٠ فاخبر الله تعالى عنه فقال : **« وابراهيم الذى وفى »** أى وفى بمعنى قوله حسبى الله ٠٠

وكان رسولنا عليه الصلاة والسلام اذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ٠

وعن أنس انه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وســلم جبريل : مالى لا أرى ميكائيل يضــحك ؟ قال جبريل عليه السلام : ما ضــحك ميكائيل منــذ خلقت النار ٠٠

فى الرجاء

الرجاء جناح يطير به العبد الى قرب الرحمن وروح الجنان ، والطريق الى الرجاء بعيد الارجاء ثقيل الاعباء قد حف بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ٠

والرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ٠٠ لكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد أن يكون له سبب ٠ فان كان انتظاره لحصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وان كان ذلك انتظارا مع ضياع الاسباب واضطرابها فاسمه الغرور ، والحمق عليه أصدق ٠

والذين يرتكبون الذنوب ولا يعرفون عن ربهم الا أنه غفور رحيم ٠٠ هؤلاء ينطبق عليهم وصف الغفلة أكثر من وصف الرجاء ٠

يعلم أرباب القلوب ان الدنيا مزرعة الآخرة ٠٠ والقلب كالأرض والايمان كالبذرة فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، جارية مجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها ، والقلب المستهتر فى الدنيا المستغرق فيها ، كالارض السيئة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد الا ما زرع ٠

يقول الامام الغزالى : ينبغى أن يقاس رجاء

العبد فى المغفرة برجاء صاحب الزرع الذى شقى وعمل فى حقله ، ولا يصدق اسم الرجاء الا على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيـــار العبــد ، ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره ٠٠ وذلك فضل الله تعالى ، يصرف المفسدات ويقبل العمل ٠

ترجو النجـــاة ولم تسلك مسالكها

ان الســـــفينة لا تجرى على اليبس

والعمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد الى الله تعالى أحبهم لله قال تعالى : «**والذين آمنوا أشد حبا لله**» ، والحب يغلب عليه الرجاء ، قال تعالى: « **لا تقنطوا من رحمة الله** » فحرم أصل اليأس ٠

وفى أخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعـــالى أفضى اليه : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ، لأنك قلت : **أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنـــه غافلون** ٠ لم خفت الذئب ولم ترجنى ، ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظى له ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يموت أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى » ٠ وقال عليه الصـــلاة والسلام : « يقول الله عز وجل : (أنا عند ظن عبـــدى بى) ٠٠ » وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف الى اليأس من رحمة الله لكثرة ذنوبه : « يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » ٠

قال تعالى : «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم

لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » .

وقال عز وجل : « **وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .**

جاء فى الخبر : « اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله ، يقول الله عز وجل لملائكته : أنظروا الى عبدى ، أذنب فعلم ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالعفو ، أشهدكم انى قد غفرت له » .

والله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الام بولدها .. قال الثورى المتصوف :

« ما أحب أن يجعل حسابى الى أبوى يوم القيامة لأنى أعلم ان الله تعالى أرحم بى منهما » .

وقال الجنيد المتصوف رحمه الله تعالى : « ان بدت عين من الكريم الحقت المسيئين بالمحسنين » . وعن مسلم من حديث أبى أيوب انه حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا انكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم » .

في التقوى

يقول الله تعالى : **((ان أكرمكم عند الله اتقاكم))** .
والتقــوى هي جمــاع الخير ، ومعناها أن يتحرز المرء بطاعة الله عن عقوبته .

يقال اتقى فلان بترسه ، أي رفع ترسه ليدفع عن نفسه السهام التي تريد قتله ، وهذا هو معنى التقوى الحقيقي .

هو حياة تدفع عن نفســها الخطيئة .. وأصــل التقوى اتقاء الشرك.. ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعده اتقاء الشبهات .

واتقاء الشرك هو أول درجات التقــوى ، والشرك هو تعظيم ما سوى الله ، أو الاعتقاد فيه أو عبادته أو حبه أكثر من حب الله .

والشرك أخفى من دبيب النملة على الصــخرة السوداء في الليلة المظلمة ، ولو ان انسانا خشي انسانا أكثر مما يخشى الله فقد أشرك .

قال الصوفية في التقوى : انها على وجوه ، هي للعامة تقوى الشرك ، وللخاصــة تقوى المعــاصي ، وللأولياء تقوى التوسل بالأفعال ، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعــال .

تقوى العامة عبادة الله وحده ، وتقوى الخاصة هجر المعاصى تماما ، وتقوى الأولياء ان يفهم الولى ان أعماله ليست هى التى توصله الى الله ، انما هو فضل الله ، وتقوى الأنبياء تكون بنسبة الأفعال اليه سبحانه اذ تقواهم منه اليه .

قال الكتانى : قسمت الدنيا على البلوى، وقسمت الآخرة على التقوى ، وقال الجويرى : من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة ، لم يصل الى الكشف والمشاهدة . **وقال سهل :** من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب جميعا .

وقال النصراباذى فى تعريف التقوى : التقوى ان يتقى العبد مما سوى الله تعالى ، من لزم التقوى اشتاق الى مفارقة الدنيا وأحب لقاء الله ، يقول تعالى : « **وللدار الآخرة خير للذين يتقون .. أفلا تعقلون** » .

وقال ذو النون :

فلا عيش الا مع رجال قلوبهم
تحن الى التقوى وترتاح للذكر
سكون الى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع الى الحجر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نظر الى محاسن امرأة فغض بصره فى أول مرة أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه .

والحكم عام على كل أنواع التقوى . والتقوى بذرة تؤتى ثمارها من الخير العميم ، فمن عف عن المال

العام بارك الله له فى ماله الخاص ، ومن تحرج من السير حول طرق المعاصى وجد عطر الطاعة فى وجدانه .

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

ـ أوصنى .

قال : عليك بتقوى الله فانه جماع كل خير ،وعليك بالجهاد فانه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله فانه نور لك .

في رداء التقوى

البسنى رداء التقوى منك .

تلك كانت كلمة الصوفى أبى الحسن الشاذلى فى أحد أحزابه وهو يدعو ربه ·

اللهم ألبسنى رداء التقوى منك ·

ما الذى يعنيه أبو الحسن الشاذلى بدعائه هذا ؟

يعبر الصوفى هنا عن تبدل الثياب الذى يعنى تبديل السلوك والشخصية ، يتجـــاوز قول بولس الحوارى حين قال : ان من أراد آن يتوب من البشر فعليه آن يلبس انسانا جديدا ، ويخلع آدم القديم ·

وكثيرا ما استخدم القدماء الثياب كرمز للانسان نفسه ، واعتقد القدماء ان الثياب هى المرء نفسه ، أو على الأقل هى جزء منه ، وأن من ارتدى ملابس جديدة فكأنما ارتدى شخصية جديدة ·

ولقد بدأت حياة الانسان الواعية باتخاذه لنفسه ثياباً ، وفى رواية القرآن نعرف ان عصيان أبى البشر وزوجه قد كشفت لهما عن حقيقة جديدة فى حياتهما · فادركا ما هما عليه من عرى ولجآ الى أوراق الشـــجر يستران به عورتهما .

قال تعـــالى : ((**فلما ذاقا الشـــجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما**

ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكمـــا ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

تمت الخطيئة الأولى وآتت ثمارها المريرة المقدرة سلفا فى علم الله عز وجل، وهبط آدم وزوجه الى الأرض، وعلى الأرض عرف أبناؤهما قيمة الثياب ، ورمز تبديلها ومغزى هذا التبديل . قال تعالى : «**يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقــوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** » .

اللهم ألبسنى رداء التقوى منك .. يعنى ذلك ان الثياب أن كانت زينة الجسد الانســانى وسترا له ، فان التقوى زينة النفس الانسانية وستر لها ، ورداء الجسد أقل شأنا من رداء النفس ، والى هــذا المعنى كان أبو الحسن الشــاذلى يقصــد من دعائه ربه .. ألبسنى رداء التقوى منك .

وكثيرا ما ينزل الانسان طائعا عن عظمة ثيابه ويستبدل بها رداء التقوى ، حين يعرف هوان المظهــر الى جوار أهمية الجوهر . عن عمر بن عبد العزيز انه كان قبل أن يلى أمور المسلمين يشــترى الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها ، فلمــا استخلف على المسلمين وصار مســـئولا عنهم ، كان يشترى الثوب بخمسة دراهم ، فيقول ما أجوده لولا لينه . قيل له أين لباســك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ان لى نفسا ذواقة .. وانها لم تذق من الدنيا طبقة الا تاقت الى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا

ذاقت الخلافة وهى أرفع الطبقات تاقت الى ما عند الله عز وجل ٠

زهد عمر بن عبد العزيز فى رداء الدنيا ٠٠ورغب فى لباس التقوى وآثره ٠

والزهد هو الناحية العملية من التصوف ، وهو أسلوب فى الحياة يحياه المؤمن ٠٠ ووجهـــة نظر يرى بها الدنيا، وكل ماتحفل به من مغريات، والزهد بمعنى الورع فى الدنيا والرغبة فى الآخـــرة شىء حث عليـــه الاسلام ، وبدأ به النبى عليه الصلاة والسلام ، وكثـــير من الصحابة مثل أبو ذر الغفارى وصديقه ابن اليمان وسلمان الفارسى والبراء بن مالك ٠

فى الطريق

يقول تعالى : « **الا لله الدين الخالص** » .

والاخـلاص فى ذروته ، فى رأى أبى الحسـن الشاذلى ، نور من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن ، فقطعه به عن غيره فذلك هو الاخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبـه ، ولا شـيطان فيفسـده ، ولا هـوى فيميله .

يقـول تعـالى : « **وما كان الله معذبهم وهـم يستغفرون** » .

وأول ما يبدأ به السالك الى الله هـو التوبة ، وتبدأ بالاستغفار ، وحقيقة الاستغفار ان لا يكون لك مع غير الله قرار .

ويمر الطريق الى الله بأربعة أشياء : أولها الذكر وبسـاطه العمـل الصالح وثمرته النور .. وثانيهـا التفكير وبسـاطه الصبر وثمرته العلم ، وثالثها الفقر مما سوى الله الى الله وبسـاطه الشـكر وثمرته المزيد منه ، ورابعها الحب وبساطه بغض شـهوات الدنيـا وبغض أهلها اللاهين ، وثمرة الحب الوصل بالمحبوب .

وتدعيمـا للتوبة وتثبيتا للاخـلاص يحسن أن يخلو الانسان وربه فترة من الزمن ، هى فترة العزلة أو فترة الخلوة ، يلازم فيها الذكر والمراقبة والتوبة

والاستغفار .. قال تعالى : **«فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا »** .

ولابد للمريد من جهاد العدو ، والعدو على قسمين: عدو يأتيك من داخل النفس ، وعدو يأتيك من خارج النفس . والمسلم المريد لله عز وجل مأمور بجهاد العدوين في نفس الوقت .. وهو مطالب بتصحيح ايمانه مع الوقت .. ويجيء تصحيح الايمان من الشكر على النعم والصبر على البلاء والرضا بالقضاء .

فاذا أكرم الله عبدا نصب له العبودية لله .. وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب في عبوديته ، والعبد الذى أكرمه الله بالعبودية يؤدى كل طاعته في وقتها .. سئل أبو الحسن الشاذلي مرة : ما الذى استفاده من طاعة الله وما الذى استفاد من معصيته . قال : استفدت من الطاعة العلم الزائد والنور النافذ والمحبة ، واستفدت من المعصية الغم والحزن والخوف والرجاء .

وعلى المريد لله تعالى الاخذ في الذكر .. كان أبو الحسن الشاذلي يكثر من الاذكار بالصيغة الآتية : « الحمد لله واستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله »

فاذا ما خصص الانسان لسانه للذكر وقلبه للشكر وبدنه لمتابعة الأمر فهو من الصالحين .

والزهد طريق من طرق السالكين الى الله، وحقيقة الزهد أن يفرغ قلب العبد مما سوى الله عز وجل ،

ومن طـرق السـالكين التوكل ، والتـوكل فى رأى أبى الحسن الشاذلى صرف القلب عن كل شىء سوى الله ، وحقيقته نسيان كل شىء سـواه ، وسره وجـود الحق دون كل شىء تلقاه ، وسر أسراره تملك وعيك لما يحبه ويرضاه .

ولا يصـح التوكل الا لمتق ، ولا تتم التقوى الا لمتكل ، ويجىء الرضا بعد ذلك ، وهو الرضا من الله وعن قضاء الله لا عن النفس .. يقول الشـاذلى : الق بنفسـك على باب الرضـا ، وانخلع عن عزائمـك وارادتك .

ويختـم الشـاذلى طريق السـالكين بالمحبة .. والمحبة والرضا والزهد والتوكل هى بسـاط الكرامة عنده .. بساط الكرامة أربع : حب يشغلك عن حب غيره .. ورضا يتصل به حبك بحبه ، وزهد يحققك بزهد فى بريته ، وتوكل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته .

في الصفاء

يقولون : ان التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء ، فهل التصوف هو الاخلاق؟. الجواب بالنفي . ان تاريخ البشرية يمتلىء بذوى الأخلاق السامية الذين ليسوا من الصوفية ، ولقد كان سقراط من أجمل الناس أخلاقا ، كان شجاعا عفيفا صادقا يؤثر أصدقاءه على نفسه ، وكان دنيا من الشجاعة والانصاف والصدق والعدالة .. ورغم ذلك لم يكن صوفيا .

ويقولون: ان التصوف هو الزهد،وحقا انالتصوف ليضم اليه جانب الزهد ، لكن التصوف ليس هو الزهد .. والزهد أنواع ، زهد فلسفي يخرج فيه الانسان من هذا العالم المادى بطريقة عقلية من أجل هدوئه النفسى ، وهناك الزهد الدينى الذى يترك فيه الانسان متاع الحياة الدنيا ، ليكون له نصيب فى متاع الحياة الآخرة ، وهناك الزهد الصوفى الذى لا يريد فيه صاحبه متاعا فى الحياة الآخرة ، وانما هو يزهد تساميا عن أن يشغله شيء سوى الله سبحانه وتعالى .

ويتحدث ابن سناء الملك عن الزهد فيقول : ان المنصرف عن طيبات هذه الدنيا ومتاعها يختص باسم الزاهد ، فاذا ترك متاع هذه الدنيا ليستمتع فى الآخرة فكأنه تاجر . ولكن المنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستدنياً لشروق نور الحق فى سره فهذا هو الصوفى .

واذا كان زهد الصوفى هو التسامي عن كل ما يشغله عن الله ، فهل معناه ترك الدنيا وصيرورة المرء فقيرا متجردا · هنا يختلف الزهد الدينى بمعناه الحديث المبتدع عن الزهد الصوفى بمعناه القديم السنى . ان زهد الصوفي لا علاقة له بالثراء ، والصوفى أبو الحسن الشاذلى كان يدعو الله فيقول : «اللهم وسع علي رزقى فى دنياى ولا تحجبنى بها عن اخراى » بمعنى انه يطلب من الله أن يكون الرزق فى يده لا فى قلبه ،بمعنى الا تستعبد المادة القلب أو تخضعه لها·ولقد كان النبى الملك سليمان ـ عليه السلام ـ زاهدا رغم ملكه العريض الهائل ·

ليس التصوف أخلاقا فحسب وليس زهدا فحسب ولكنه يتضمن الاخلاق والزهد ويتجاوز ذلك لأمر ثالث قيل انه العبادة ، لكن العابد والصوفى يفترقان رغم مسيرتهما الواحدة ،يفترقان فيما يتعلق بالهدف ،فهدف العابد أن ينال الاجر فى العالم الآخر ، أما الصوفى فلا يريد الاوجه الله تعالى ·

يقول أحد الصوفية: «الهى ان كنت أعبدك طمعا فى جنتك فلا تدخلنى فيها ، وان كنت أعبدك خوفا من نارك فاحرقنى بها ، وان كنت أعبدك لوجهك الكريم فاسألك أن ترينى اياه يارب » ·

وأحيانا يعرفون الصوفى بأنه من تظهر على يده الكرامات أو خوارق العادات ، وذلك تعريف لا يحبه الصوفية أنفسهم ، اذ يرون ان الكرامات لعب تعطى للأطفال يلهون بها ولا يأبه لها الكبار · وقديما قال الجنيد من مقامه الركين : « سار رجال على الماء وهلك بالعطش رجال أفضل منهم » ·

ما هو التصوف اذن ؟ ما هو تعريفه ؟ يختار الدكتور عبد الحليم محمود هذا التعريف فيقول :
« التصوف صفاء ومشاهدة ، والصفاء ليس علما وليس دراسة كسبية وليس منطقا وبحثا ، الصفاء هو انصراف الانسان بكل أفكاره الى الله سبحانه وتعالى . والمشاهدة هى نتيجة الصفاء وثمرته .

يريد الصوفى معرفة يقينية تصل الى حد المشاهدة أو الشهادة كما يريد الاسلام . تأمل الاسلام حين يتحدث عن أساس الايمان فى ذروته فيقول : اشهدوا أن لا اله الا الله ، لم يقل اعتقدوا أو قولوا . تجاوز هذا الى الشهادة . ان المثل الأعلى فى الاسلام هو الشهادة ..

« أشهد أن لا اله الا الله » .

وهكذا يتجاوز المسلم أقول وأنطق وأعتقد وأومن الى أشهد ، فاذا انتهى الى الشهادة فقد انتهى الى القمة التى رسمها الاسلام .

فالتصوف اذن هو ارادة الشهادة ، هو الصفاء الذى يؤدى للمشاهدة أو الشهادة ، واذا قال المسلم أشهد أن لا اله الا الله وهو لا يشهد حقا فهو شاهد زور لأنه يقول الكلمة على غير صورتها الحقيقية

في المشــاهدة

الصفاء في الصوفية وسيلة ، والمشاهدة فيها غاية فما الذي تعنيه المشاهدة ؟

هل تعني رؤية الله عز وجل ومعرفته •

سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا • في هذه الدنيا ، لا يستطيع أحد أن يرى الله أو يعــــرفه حق المعرفة •

قالت عائشة رضي الله عنها « من قال ان محمدا قد رأى ربه فقد أعظم على ربه الفرية » • ثم قرأت قوله تعالى : « **لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار** »

ويحدثنـــا الله تبارك وتعـــالى عن نبيه الجليل موسى حين سأله الرؤية ، فيقول :

« **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرني أنظر اليك ، قال : لن تراني ولكن أنظر الى الجبل ، فأن استقر مكانه فسوف تراني ، فلمـــا تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** » •

الرؤية مستحيلة اذن في الدنيا •

قال الجنيد : لا يعرف الله تعالى الا الله تعالى

وقيـــل لذي النون وقد أشرف على الموت : ماذا تشتهي ؟ • فقال : أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة •

ويقول الغزالى : كيف يتعجب المتعجبون من قولنا لم يحصل أهل الأرض والسماء من معرفة الله تعالى الا على الأسماء والصفات . فان قيل فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ قلنا : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، فانه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى . وذلك ما أشار اليه أحد الصوفية حيث قال « العجز عن درك الادراك ادراك ، وهو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : « لا أحصى ثناء عليك أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك » .

والسبيل الحقيقى الى معرفة الله عز وجل مسدود الا فى حق الله عز وجل ، ولا يبقى أذن أمام العبد الا طريق معرفة الاسماء وشهود الحق فاعلا فى الكل .. وذلك طريق تتفاوت فيه المراتب .. يقول الغزالى .

« وكذلك يتفاوت الخلق فى معرفة الله عز وجل فبقدر ما ينكشف لهم من علم الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت تزداد معرفتهم بالله تعالى وتقرب معرفتهم من معرفة الحقيقة . »

وما يجرى على المعرفة يجرى على الشهادة ، ببصر العين لا يرى العبد مولاه ، وببصيرة القلب يراه سبحانه

قال أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى :

ـ وأخذنى شيخى من يدى وأجلسنى فى ايوان ، ومد يده فأخرج كتابا وأخذ يقرأ ، فتطلعت الى معرفة

هذا الكتاب فلمح الشيخ هذه الحركة فقال : يا أبا سعيد ، ان عددا لا يعلمه الا الله من الأنبياء قد بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة هى « الله » فمن سمعها بأذنه فقط لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى ، أما من سمعها بروحه وطبعها فى نفسه وتذوقها حتى نفذت الى أعماق قلبه وفهم معناها وألهم حبها فقد انكشف له كل شىء ٠

وبالكشف تحصل المشاهدة ٠٠ ومن الصفاء تولد الشهادة ٠٠ والله سبحانه أجل من أن يراه خلقه ، انما يرونه بعين الحب فى الدنيا بعد طريق المجاهدة ، فاذا انفضت الدنيا وجاء يوم الحق ، شهدوا ربهم مصداقا لقوله فى القرآن الكريم : **«وجوه يومئذ ناضرة ٠٠ الى ربها ناظرة»** ٠٠

هتف أبو يزيد البسطامى يوما فى وجده ، وما الجنة ؟ انها لعبة الصبيان ونعيمهم ٠٠ أما أنا فأطلب وجه الله ٠ هو جنتى ونعيمى وأنسى وغايتى ٠٠

فى الحساسية

عن عمر رضى الله عنه انه قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال :

ـ يا محمد .. أخبرنى عن الاسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » .

قال الرجل : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

ثم قال الرجل للنبى : فاخبرنى عن الايمان . قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت ، فاخبرنى عن الاحسان ؟ قال : ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .. الى آخر الحديث .

قال عمر : ثم انطلق الرجل فلبث النبى مليا ثم قال : « يا عمــر أتدرى من الســائل » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

يعتبر علماء الحديث هذا الحديث كالأم للســنة كما سميت الفاتحــة أم القرآن لما تضمنته من جمعهــا معانى القرآن . وقديمــا كانت الأحاديث لا تكتفى بأن تصل الى أسماع المسلمين ثم تقبع هناك مجرد أحاديث ، انمــا كانت تتحــول الى واقع حى وحســاسية تصبغ وجودهم كله .

وعندما يحس المسلم أنه ان لم يكن يرى الله فان الله تعالى يراه ، فان استشعار هذه الرقابة الدائمة من رب العالمين على كل تصرف يأتيه المسلم ، هو الذى يخلق هذه الحساسية التى ميزت رجال الاسلام الأول .

مر ثعلبة بن عبد الرحمن الانصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وســلم يوما بباب رجل من الأنصــار فبصر بامرأة الأنصارى وهى تغتسل فكرر النظر اليها ، ثم تذكر أن الله تعالى يراه وأحس بذنبه فخرج هائما على وجهه الى جبال بين مكة والمدينة .

وبعث رســول الله عمر بن الخطاب وســلمان الفارسى فى طلبه ، فلقيهما راع من رعاة المدينة ، فقال له عمر : هل لك علم بشاب بين هذه الجبال ، فقال : لعلك تريد الهارب من جهنم : قال عمر : وما علمك بأنه هرب من جهنم ، قال : لأنه اذا كان نصف الليل خرج علينا من الشعب واضعا يديه على أم رأسه يبكى وينادى

يا ليتك قبضت روحى بين الأرواح وجسدى بين الأجساد ولا تجردنى ليوم القضاء ·

فلما أتى به الى رسول الله قال : ما الذى غيبك عنى ؟ قال : ذنبى يا رسول الله · قال : أفلا أعلمك آية تمحو الذنوب والخطايا · قال : بلى يا رسول الله ·

قال رسول الله · قل « **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** » قال : ان ذنبى أعظم من ذلك ، قال رسول الله : بل كلام الله أعظم · وأمره بالانصراف الى منزله · فانصرف ومرض ثلاثة أيام ·

وجاء سلمان الى النبى عليه الصلاة والسلام وقال له : ان ثعلبة لمائت ·· ويذهب الرسول اليه ، يأخذ رأسه فيضعه فى حجره فيزيل رأسه عن حجر النبى · ويسأله رسول الله : لم أزلت رأسك عن حجرى · فيجيب : لأنه ملآن من الذنوب · يسأله الرسول : ماذا تشتهى ، فيقول ثعلبة : مغفرة ربى ·

ونزل جبريل على النبى قائلا له : يا أخى ان ربك يقرئك السلام ويقول : « لو لقينى عبدى بقراب الأرض خطايا ثم تاب لقيته بقرابها مغفرة » فأعلم الرسول ثعلبة بذلك ·

بهذه الحساسية كان يمضى سلفنا الصالح ··

فى النجاة

كان الجنيد يجلس مع رويم والهجـــويرى وابن عطـــاء •

قال الجنيد :

ـ ما نجا من نجا الا بصدق اللجا (يقصد اللجوء الى الله) ثم قرأ قوله تعالى : «**وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بمـــا رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا • ان الله هو التواب الرحيم** » •

وقال رويم :

ـ ما نجا من نجا الا بصدق التقى •• قال الله تعالى : « **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم** » •

وقال الهجويرى :

ـ ما نجا من نجا الا بمراعاة الوفاء •• قال تعالى: « **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** » ••

وقال ابن عطاء :

ـ ما نجا من نجا الا بتحقيق الحياء •• قال الله تعالى : « **الم يعلم بأن الله يرى** » •

وقال الجنيد :

ـ ما نجا من نجا الا بالحكم والقضا •• قال الله

تعالى : « **ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** » ••• قال أيضا ما نجا من نجا الا بمن سبق له من الله الاجتباء قال الله تعالى : «**واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم** » ••

تختلــط على النــاس طرق النجاة ••• وتمتلىء الطريق بالحيرة والضباب • ولعل ما غشى القلوب هو المسئول عن عدم جلاء البصر وانطفاء البصيرة •

والله تعالى رحيم بعباده ، وقد خلقهم للنعيم ، وهو يأخذهم بالرفق والحب ، ويســوق اليهم آيات النعم والفضل والرحمة ، وهو يدلهم على طريق النجاة •

وأحيانا يكون طريق النجاة هو طريق العذاب والألم والشدائد ، قال تعالى : **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » ويتحدث الله تعالى عن الصابرين فيقول : «**انمـا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » •

ويرى الصوفية ان الانسان فى قبضة الله ، وانه يفر من الله الى الله ••• يهرب من حكم الله ولكن الخالق يراه أينما اختفى ويجده أينما ذهب ، فى بطن الحوت كان مثل النبى يونس ، أو فى جوف الصحراء مثل النبى موسى •

ومثلما يقدم الحق يد المنة والنعمة ، فكذلك يبتلى بالألم والشدة ، ويستحيل على الانسان أن يقاوم هذه القدرة اللانهائية الرحيمة التى لا تفتأ تتعقبه من أجل خيره وصلاحه •

يروى النفرى ، وهو صوفى قديم ، أحد المواقف

التى استمع فيها لخطاب القدرة الالهية : « استمع الى لسان من ألسنة سطوتى ، اذا تعرفت الى عبد فدفعنى بالذنوب عدت بالرحمة كانى ذو حاجة اليـه . يفعل ذلك منى سبق كرمى فيمـا أنعمت ...... ويفعل ذلك منه بخل نفسه بنفسه التى أملكها عليه ولا يملكها على . فان دفعنى عدت اليه ولا أزال أعود ، وهو يرانى أكرم الأكرمين وأنا أعود اليه ، وأنا أراه أبخل الأبخلين» .

وترسم أبيات الصوفى المحب ابن الفارض طريقه الى النجـاه فيرينا مقاماته التى تبدأ بالصـوم وتنتهى بالنجاة .

وصمت نهـارى رغبة فى مثوبة ... وأحييت ليـلى رهبة من عقوبة
وعمـرت أوقاتى بورد لـوارد ... وصمت لسمت واعتكاف لحرمة
وبنت عن الأوطان هجران قاطع ... مواصلة الاخوان واخترت عزلتى
وهذبت نفسى بالرياضة راجيا ... الى كشف ماحجب العوائد غطت
وجردت فى التجريد عزمى تزهدا ... وآثرت فى نسكى استجابة دعوتى

فى المحبة

قال تعالى ··« **والذين آمنوا أشد حبا لله** » ··
وعن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم انه قال :
« أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبونى لحب الله » .

والحب لله تعالى ليس كلمة تقال باللسان بينما القلب غارق فى المعصية · روى الحسن البصرى ان ناسا قالوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله انا نحب ربنا حبا شديدا ·· فجعل الله تعالى لمحبتـه علامة وأنزل قوله : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** » ·· وبذلك قيدت محبة الخالق عز وجل باتباع هديه والايمـان به وبرسوله ·

يقول أبو سعيد الخراز : بلغنا ان موسى عليه السلام قال : يارب أوصنى :

قال عز وجل : « أوصيك بى »

قال : يارب كيف توصينى بك ؟

قال : لا يعرض لك امران احـدهما لى والآخـر لنفسك الا آثرت محبتى على هواك

ومن صدق محبة الله تعالى ، ايثار رضاه عز وجل على رضا المخلوقات والنفس ، وان يبدأ العبد الصالح فى الامور كلها بامر الله قبل أمر نفسه ، وان يتزين

للحق بكل طاقته ، حذرا من ان يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه ٠

روى النبى صلى عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال ٠٠ « يقول الله عز وجل ما تقرب الى عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » ٠

ومن صدق محبة الله تعالى ، أن يحب العبد عند النعم وعند فقد النعم حبا صحيحا ، منعه الله أو اعطاه٠ ابتلاه أو عافاه ٠٠ وبذلك تسمو محبة الله تعالى عن ان تكون على قدر النعم فلا تنقص اذا نقصت النعم ٠ يروى شهاب الدين السهروردى المقتول فى « مؤنس العشاق » ان العلم بالله تعالى يلد الحياء والتأثر والعاطفة وتقود العاطفة الى الحب ٠٠ ويروى الغزالى حجة الاسلام ان أقسام الحب خمسة : حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقاءه ، وحبه من أحسن اليه ، وحبه من كان محسنا فى نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه ، وحبه ما هو جميل فى ذاته ، وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن ، وهذه الأسباب كلها لا تجتمع ، ولا يتصور اجتماعها الا فى حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة الحقيقة الا الله سبحانه وتعالى ٠

فى هديه صلى الله عليه وسلم

من صدق محبة العبد لله تعالى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، في هديه وزهده واخلاقة ، والتأسى به فى الامور كلها ، فان الله عز وجل جعل محمدا صلى الله عليه وسلم علما ودليلا وحجة لنا ورحمة للعالمين ، قال تعالى : « **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » .

جاء في زاد المعاد لابن قيم الجوزيه عن هديه صلى الله عليه وسلم فى ملابسه وطعامه : « كان هديه في اللباس ان يلبس ما يتيسر منه ، من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة . وكان هديه فى الطعام ، الا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا . فما قرب اليه شيء من الطيبات الا أكله ، الا ان تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم . وما عاب طعاما قط ، ان اشتهاه اكله والا تركه . ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه ، بل كان هديه اكل ما تيسر فان أعوزه صبر .

وقال عن هديه صلى الله عليه وسلم فى نومه : كان ينام على فراشه تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الارض تارة ، وعلى السرير تارة ، وتارة على كساء أسود .

وفى تعامله : كان صلى الله عليه وسلم هينا لينا، وكان يحض على السماحة واليسر والرفق فى تناول

الامور ، بما فى ذلك أمور العقيدة ، قال عليه الصلاة والسلام : « ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه • وقال : لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فان قوما شددوا على انفسهم فشدد عليهم ، وقال: يسروا ولا تعسروا ، وقال : رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى ، وقال : المؤمن يألف ويؤلف •

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضى باليسر ، وذلك مصداق قوله تعالى : « **ونيسرك لليسرى** » فكان كما روت عنه عائشة رضى الله عنها : ما خير بين أمرين الا اختار ايسرهما ، وكان اذا خلا فى بيته الين الناس تبسما وضحكا ، وفى صحيح البخارى عن تواضعه « كانت الجارية تاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت » •

وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها صفحات من السماحة واليسر واللين والهوادة والتوفيق فى تناول الامور ، ولقد جاء صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين رحمة ، جاء ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويضع اصر البشرية عنها ، قال تعالى : **« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم »** •

فى التوحيد

الايمان على درجات ، منه ايمان بالقول ، ومنه اعتقاد وتصديق بالقلب ، ومنه حال للمؤمن أو ملكة فيه أو صفة ممتزجة بكيانه ، تصدر عنها أفعاله صحيحة سليمة تتفق مع ما يطالب به الشرع .

وكذلك التوحيد ، منه قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، ومنه حال للروح ، أو تجربة روحية يشهد فيها الموحد وحدانية الحق وانفراده بالالوهية الكاملة .

قام رجل بين يدى ذى النون المصرى فقال : اخبرنى عن التوحيد . قال ذو النون : أن تعلم ان قدرة الله تعالى فى الاشياء بلا مازج ، وصنعه للاشياء بلاعلاج ، أى من غير مباشرة آلة ، وكل صنع له علة ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السماوات العلا ولا فى الارض السفلى مدبر غير الله ، وكل ماتصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك .

ويتحدث الصوفية فى التوحيد ، يقول القشيرى : أن الحق سبحانه وتعالى موجود قديم واحد قادر عليم قاهر ، له يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء سبحانه ، وله الوجه الجميل ، وصفات ذاته مختصة بذاته ، لا هى هو ولا هى أغيار له ، بل هى صفات ازلية ، ونعوت سرمدية ...

ويقول الهجويرى : فاذا عرف العبد الحق وحده

وأقر بأنه واحد ، ليس فى ذاته جمع ولا تفرقة ، ولا اثنينية ، وانه واحد لا بالعدد الذى اذا اضيف اليه غيره صار اثنين ، وانه ليس محدودا وليس له مكان ولا فى مكان ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال التى وصفه بها المؤمنون الموحدون ، ووصف بها نفسه ، منزه عن صفات النقص التى وصفه بها الكافرون .. هو وصفاته قديمان .

هذه هى صفات الحق تبارك وتعالى كما قررها صوفيان كبيران هما القشيرى والهجويرى . ورغم أنها ترد جميعا الى أصل واحد أوصفة واحده ، هى مخالفته تعالى للحوادث . مصداقا لقوله عز وجل : « **ليس كمثله شيء** » رغم ذلك فهناك من ينزه الله تعالى بأفضل مما فعل الصوفيان الكبيران .

ذلكم هو ابن حزم الاندلسى الفقيه الظاهرى ، يذهب ابن حزم الى حد أبعد من ذلك فيقرر ان اطلاق لفظ الصفات على الله تعالى محال لا يجوز ، لأن الله عز وجل لم ينص قط فى كلامه المنزل على لفظ الصفات ولا على لفظ الصفة ، كما ان النبى صلى الله عليه وسلم لم ينسب الى الله يوما صفة أو صفات .

فاذا قيل ان كتاب الله يقول عنه سبحانه وتعالى أنه العليم الحكيم الرحيم القدير السميع البصير الى آخر ذلك ، كان رد ابن حزم على ذلك ، ان كل هذه اسماء لله تعالى وليست صفات يحق لنا معها ان ننسب اليه عز وجل صفات العلم والحكمة والقدرة والسمع والبصر .

هى أسماء بنص القرآن ونص السنة والاجماع ..
قال تعالى : « **ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعلمون** » .

ويقول تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

ولم يختلف احد من اهل الاسلام فى انها اسماء لله تعالى ، ولا يجوز القول بانها صفات ، ولو وجد فى المتأخرين من يقول ذلك لكان قولا باطلا ومخالفا لقوله تعالى ، وتبعا لذلك فان ابن حزم لايفهم من قولنا « قدير » و « عالم » عند الحديث عن الله تعالى الا مايفهم من قولنا « الله » فقط .

فاذا قلنا عن الله تعالى انه بكل شىء عليم ، أو انه يعلم الغيب ، فاننا ننسب اليه العلم ، ونقرر أنه لايخفى عليه شىء ، ولكن هذا القول لا يعنى مطلقا ان يكون لله تعالى علم هو غيره ، أو ان يكون علم الله شىء غير الله عز وجل .

في هدف الصوفيه

من كلمات الجنيد في التوحيد قوله :

(ان يصل العبد الى حال يكون فيهـا شبحا قائما بين يدى الله عز وجل ، ليس بينهما ثالث ، تجرى عليه تصـاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته . فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابته لهم بحقائق وجوده ووحدانيتـه فى حقيقة قربه بذهاب حسـه وحركته لقيام الحق له فيما أراده منه . والعلم فى ذلك أنه رجع آخر العبد الى أوله بأن يكون كما كان اذ كان قبـل أن يـكون . والدليل على ذلك قول الله عز وجل . « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسـت بربكم ؟ قالوا بلى** » وهل أجابت الا الأرواح الطاهرة العذبة المقدسة باقامة القدرة النافذة والمشيئة التامة الأركان . وهذا غاية توحيد الموحد للواحد .. يذهب هو) .

ما الذى تعنيه كلمـات الجنيد البعيدة العمق . سنلاحظ فى البداية أن كلمات الجنيد تشرب من أحد أعماق القرآن الصافية ، من آية الميثاق التى تشير الى أن الله تعالى خاطب أرواح بنى آدم فى الأزل حين كانوا فى عالم الذر وأشهدهم على أنفسهم بسؤاله اياهم .

ـ الست بربكم ••

فشهدوا له بالوحدانية بقولهم : بلى ••

من هذه الآية الكريمة يبنى الجنيد نظريته فى التوحيد ، وهى نظرية يرى الدكتور أبو العلا عفيفى ان صوفيا لم يسبق اليها •

يرى الجنيد ان النفوس البشرية كان لها وجود سابق على وجودها المتصل بالأبدان ، والى ذلك يشير القرآن الكريم • وفى هذا الوقت الذى سبق اتصال هذه النفوس بالابدان ، ولصفاء هذه النفوس وقربها من الله عز وجل شهدت له بالوحدانية وأقرت بالتوحيد ولزمتها الحجة • ثم نزلت هذه النفوس الى الدنيا •• الى عالم الأبدان والكثافة والشهوات والظلمات والاختبار والابتلاء •• ودخلت حياتها معان جديدة ، ورانت على قلبها ستائر المعصية ، وبعد الطريق بينها وبين الله عز وجل •

ولكى تصل النفوس الى توحيدها القديم ، يرى الجنيد أنه لا بد لها من العودة الى الحال التى كانت عليها فى عالم الذر ، أو قرابة ما تستطيع منه ، وذلك ما عناه بقوله « والعلم فى ذلك انه رجع آخر العبد الى أوله • بأن يكون كما كان اذ كان قبل أن يكون » يعنى بذلك أن يكون العبد كما كان اذ كان فى عالم الذر والأرواح قبل أن يكون فى عالم الأبدان • العودة الى الى الصفاء الأول هو هدف الصوفية •

والى هذا المعنى يشير ابن الفارض بعد الجنيد بزمن ، اذ يتحدث عن حب النفس لله وهى لم تزل فى

عالم الذر قبل وجودها فى النشأة الانسانية فيقول :

وهمت بها فى عالم الذر حيث لا
ظهور وكانت نشوتى قبل نشأتى

منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن
بدت عند أخذ العهد فى أوليتى

واذا كانت العودة الى نفس الصفاء والطهارة اللتين كان عليهما الانسان حين أخذ عليه عهد التوحيد قبل خلق بدنه ، اذا كانت هذه العودة مستحيلة ما دامت هناك صلة بين الجسم والروح ، فان الطريق لتحطيم استحالتها هو التحرر من قيود البدن وعلاقاته، وذلك ممكن بطريق الصوفية الذى يبدأ بالتوبة وينتهى بالفناء فى الله . والطريق طويل ولكل واحد حظ مما مشاه فيه من خطوات .

فاذا وصل العبد الى التسليم المطلق .. وأصبح شبحا قائما بين يدى الله ، وصل الى مقام المعرفة الصوفية الذى تنكشف فيه الأشياء بنور يقذفه الله تعالى فى القلب كما عبر حجة الاسلام الغزالى .

في الحياء

لايبلغ المسلم درجة الاسلام الا مع الحياء .. قال الله تعالى : **«ألم يعلم بان الله يرى»** . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « الحياء من الايمان » ..

قال النبي عليه الصلاة والسلام يوما لأصحابه . « استحيوا من الله حق الحياء » .

قالوا : انا نستحي يانبي الله والحمد لله .

قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيى من الله حق الحيـــــاء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حـوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن اراد الآخـرة ترك زينة الحيـاة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء .

قال الحكماء : أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيون . يقصدون بذكر الله . وقال ابن عطاء : العلم الاكبر هو الهيبة والحياء ، فاذا ذهبت الهيبة والحياء ، لم يبق فيه خير ، اى لم يبق فى القلب خير .

قال ذو النون المصرى : الحيـاء وجود الهيبة في القلب ، مع وحشـة ما سبق منك الى ربك سبحـانه وتعالى ، والحب ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يعلق ، وقال السرى : ان الحيـاء والانس يطرقان القلب فان وجدا فيه الزهد والورع حلا والا رحلا .

قال الهجويرى : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين ، حتى رق الدين ، ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء ، حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة ، حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

يقول أبو القاسم القشيرى فى الرسالة القشيرية فى تفسير قاله تعالى : « **ولقد همت به وهم بها لولا ان راى برهان ربه** » البرهان انها القت ثوبا على وجه صنم فى زاوية البيت .. فقال يوسف عليه السلام .. ماذا تفعلين ؟ .. قالت أستحى منه ؟ قال يوسف عليه السلام انا اولى منك ان استحى من الله تعالى .

قال الدارانى : ان الله تعالى يقول لعبده : «ياعبدى انك ما استحيت منى أنسيت الناس عيوبك ، وانسيت بقاع الارض ذنوبك ، ومحوت من ام الكتاب زلاتك ، ولا أناقشك فى الحساب يوم القيامة » .

وشوهد رجل يصلى خارج المسجد ، فقيل له لم لاتدخل المسجد فتصلى فيه فقال : استحى منه تعالى ان ادخل بيته وقد عصيته .

والحياء انواع ، حياء الجناية كآدم عليه السلام حين أكل من الشجرة واكتشف انه عار وناداه الله فأسرع يجرى فقيل له : أفرارا منى ؟ قال : بل حياء منك . وحياء التقصير كالملائكة يقولون له : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، وحياء الحب كموسى عليه السلام حين ناجى ربه قائلا انى لتعرض لى الحاجة من

الدنيا فاستحى ان اسألك يارب . فقال الله عز وجل: سلنى حتى عن ملح عجنتك وعلف شاتك ..

ومن انواع الحياء العظمى حياء الانعام وهو حياء الرب سبحانه وتعالى اذ يدفع الى العبد كتابا مختوما بعد ما يعبر الصراط ، واذا فيه : فعلت ما فعلت وقد استحييت أن اظهره عليك فاذهب فانى قد غفرت لك .

قال الفضيل بن عياض : علامات الشقاء خمس : قسوة القلب .. وجمود العين .. وقلة الحياء .. والرغبة فى الدنيا .. وطول الامل .

وقالت كتب الصوفية وهم يتكلمون بلسان الحال عن الله عز وجل : ما أنصفنى عبدى يدعونى فاستحى ان ارده ، ويعصانى فلا يستحى منى .

وقال يحيى بن معاذ : سبحان من يذنب العبد فيستحى هو منه .

وقيل فى تعريف الحياء انه انقباض القلب لتعظيم الهيبة .

في الذكر

روى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه من الاحاديث القدسية قول الحق : « لايذكرني عبد في نفسه الا ذكرته في نفسي ‥ ولا يذكرني في ملأ الا ذكرته في الملأ الأعلى » .

ويحث الله سبحانه وتعالى على الذكر في قوله **« واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » .**

ويأمر الله تبارك وتعالى بالذكر فيقول : **« يا ايها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا » .**

ويصف الله تبارك وتعالى اصحاب العقول المستنيره ، بانهم لايكفون عن ذكر الله عز وجل سواء كانوا قياما أم قعدوا على جنوبهم ‥ يقول عز وجل :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ‥ ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار ، ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار » .

والذكر على نوعين ، ذكر اللسان وذكر القلب ، فذكر اللسان يوصل الى ذكر القلب ، ومتى ذكر العبد بقلبه ولسانه كان على طريق النجاة .

قال ذو النون المصرى : من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب الذكر كل شىء وحفظ الله تعالى عليه كل شىء ، وكان له عوضا عن كل شىء .

سئل ابو عثمان : نحن نذكر الله تعالى ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ، قال : احمدوا الله ان سخر جارحة من جوارحكم لطاعته .

وفى الاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « اذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها » . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، اغدوا وروحوا واذكروا ، من كان يحب ان يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده . فان الله سبحانه وتعالى جعل العبد منه حيث هو من نفسه .

ومن أعظم خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، وكل الاوقات يصح فيها الذكر ، قال الحسن البصرى : تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة اشياء فى الصلاة وفى الذكر وقراءة القرآن ، فان وجدتم فاطمئنوا والا فاعلموا ان الباب مغلق .

وقال سهيل بن عبد الله : ما من يوم الا والجليل سبحانه ينادى : ياعبدى ما أنصفتنى ، اذكرك وتنسانى ، وأدعوك الى وتذهب الى غيرى ، واذهب عنك البلايا وانت عاكف على الخطايا ، يا ابن آدم ما تقول غدا اذا جئتنى .

قال الكتانى : « لولا ان ذكره فرض على ما ذكرته اجلالا له ... مثلى يذكره ولم يغســـــل فمه بتوبة مقبولة .

وقال الشبلى يوما ..

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحــة
وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت منالهوى
وهـــام على القلب بالخفقـــان

فلما رآنى الوجد أنك حاضرى
شـــهدتك موجودا بكل مكـــان

فخاطبت موجـــودا بغير تكلم
ولاحظت معلوما بغـــير عيـــان

فى الشكر

قرن الله تعالى الشكر بالذكر فى كتابه مع قوله تعالى : **ولذكر الله أكبر** ..

قال تعالى : « **فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** » قال تعالى : « **ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم** » . وقال تعالى : « **وسنجزى الشاكرين** »

أخبر الله عز وجل عن ابليس اللعين أنه قال : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » . قال العلماء هو طريق الشكر .. ولعلو مرتبة الشكر طعن ابليس فى الخلق فقال : « **ولا تجد أكثرهم شاكرين** » .

ولخطورة الشكر ولكونه مقاما عاليا لا يبلغه معظم الخلق قال تعالى : « **وقليل من عبادى الشكور** » .

والشكر خلق من أخلاق الربوبية ، قال تعالى عن نفسه : « والله شكور حليم »

وقال عز وجل : « **فان الله شاكر عليم** » وتلقى هذه الكلمات ظلالا ندية ، اذ تقرر شكر الرب للعبيد ومن ثم توحى بالأدب الواجب على العبد مع الرب .. فاذا كان الرب يشكر لعبيده الخير الذى يفعلونه مع أن الخير فى نهاية الأمر رحمة ونعمة من الرب ذاته ، فماذا يصنع العبد ليوفى الرب حقه من الشكر والحمد على نعمتين هما : الخير أولا ، وشكر الحق تبارك وتعالى عليه ثانيا .

جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الخير وآخر كلامهم ، فأخبر عمن يدخل الجنة أنهم يقولون : « **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ان ربنا لغفور شكور** » ..
وقال تعالى : « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » .

قالت عائشة رضى الله عنها : أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فدخل معى فى فراشى حتى مس جلدى جلده ثم قال : يا ابنة أبى بكر ، ذرينيأتعبد لربى . قلت: انى احب قربك لكننى أوثر هواك . فأذنت له فقام الى قربة ماء فتوضا ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره . ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذن لصلاة الفجر فقلت : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : « افلا أكون عبدا شكورا »

ولا يكون الشكر الا للمنعم ، ولا منعم سوى الله تعالى . ويرى العارف بالله الامام الغزالى أن حركة النفس نحو الشكر نعمة .. فكيف نشكر نعمة بنعمة ..وذلك يعنى ان الشكر محال فى حق الله تعالى .. ولقد خطر هذا الخاطر لداود ولموسى عليهما السلام ، فقال موسى: كيف أشكرك يارب وشكرى لك نعمة أخرى منك ، توجب على الشكر لك ، فأوحى الله اليه : اذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا .

فى سنن ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها،

وصعدا الى الله تعالى فقالا : يا ربنا ان عبدا من عبادك قال مقالة لا ندري كيف نكتبها .. قال الله وهو أعلم بما قال عبده : ما الذى قال عبدى . قالا : انه قال : « لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك » . فقال الله تعالى لهما : أكتباها كما قالها عبدى حتى يلقاني فأجزيه بها ..

يارب ..

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

فى الصدق

قال تعالى :

« **يا ايهـــا الذين آمنوا اتقـوا الله وكونوا مع الصادقين** » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال العبد يصـــدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والصـــــدق عماد الأمر وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وهو يتلو درجـة النبوة ، قال تعـالى : « **فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** » .

يقول القشـيرى : اقل الصـدق اسـتواء السر والعلانية ، والصادق من صدق فى اقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأمواله .

وقال أحمد بن خضرويه : من أراد ان يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق ، فان الله تعالى يقول : « **هذا يوم ينفع الصـادقين صـدقهم** » .. قال الدارانى : الصادق ان يصف لسانه ما فى قلبه .

وتختلف نظرة الصوفية للصدق ، قيل : الصدق هو القول الحق فى مواطن التهلكة ، وقيل : هو موافقة

السر للنطق ، وقيل : منع الحرام من الشوق ، وقيل : الوفاء لله سبحانه بالعمل .

قال ابراهيم الخواص في تعريفه للصدق : الصادق لا تراه الا فى فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه ، وقال : حقيقة الصدق ان تصدق فى موطن لا ينجيك منه الا الكذب ، وسئل الحارث المحاسبى عن علامة الصدق فقال : الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق ، من أجل صلاح قلبه ، لا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السىء من عمله ، فان كراهته لذلك دليل على انه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من اخلاق الصديقين .

قال تعالى :

« **فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم** » وقال عز وجل « **واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد** » وقال سبحانه تعالى .. « **ليسأل الصادقين عن صدقهم** » .

والصدق هو أول الطريق الى الله وهو منتهاه ، ولو صدق العبد ربه فى قوله وفعله وحركاته وسكناته وقيامه ، لكتب عند الله من الصادقين ، والصدق اسم لمعان كثيرة كما يقول ابو سعيد الخراز ، وأوله هو صدق العبد فى الانابة الى الله بالتوبة النصوح ، وثانيه الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها . قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين** » .

ومن معاني الصـــدق معرفة عدو البشر ابليس ، قال تعالى : **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** » • ومن معانى الصدق : الصدق فى الورع والتقوى •• والصدق فى الورع هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور •

ومن معاني الصدق ، الصدق فى الزهد •• ان ينصرف المرء عن الدنيـا رغم القدرة عليهـا •• قال تعالى : « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد** » • ويتفق الحكماء على أن الدنيا هى النفس وما هويت •

ومن استعلى على رغبات نفسه ، وأطاع ربه كتب عند الله من الصادقين •

في العبودية

قال الله عز وجل : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ..

قال أبو علي الدقاق : العبودية أتم من العبادة تجيء العبادة أولا ثم العبودية ثم العبودة .. العبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص .

العبادة عند الصوفية لمن له علم اليقين ، والعبوديه لمن له عين اليقين ، والعبودة لمن له حق اليقين ، العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات ، فمن لم يدخر عند الله نفسه فهو صاحب عبادة ، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية ، ومن لم يبخل عليه بروحه ، فهو صاحب عبودة .

روى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في العابدين سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات مال وجمال فقال انى

أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

سئل محمد بن خفيف : متى تصح العبودية ؟ فقال : اذا طرح همه كله على مولاه . وقال سهل بن عبد الله لا يصح التعبد لأحد حتى يضيع جزعه من أربعة أشياء من الجوع والعرى والفقر والذل ، وقيل : من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون أنت عبده فى كل حال ، كما أنه ربك فى كل حال .

وقال الهجويرى : عبيد النعم كثير عددهم .. وعبيد المنعم عزيز وجودهم . وقال أبو على الدقاق .. أنت عبد من أنت فى رقه وأسره ، فان كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار .. تعس عبد الخميصة » .

قال الصوفية : العبودة شهود الربوبية .. وقال النصراباذى : قيمة العابد بمعبوده كما أن شرف العارف بمعروفه ، وقال الفارس عن ابن عطاء : العبودية فى أربع خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

لا يوجد فى الدنيا أشرف من وصف العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمنين من الاسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه وتعالى فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج وكانت أشراف أوقاته فى الدنيا : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد**

الأقصى « وقال تعـــالى : « **فأوحى الى عبده ما أوحى** » فلو كان اسم أجل وأعظم من العبودية لسماه به ٠

قال الجوزجانى : « الرضا دار العبودية والصبر بابه ، والتفويض بيته ، وكما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول عنه ، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه ما دام قائما بالحق ٠

فى السفر

كان أبو على الدقاق يجلس حين جاءه مريد يقول له : سافرت اليك من مكان بعيد وقطعت مسافة طويلة والمقصود لقاؤك ، قال الدقاق : كان يكفيك خطوةواحدة لو سافرت عن نفسك .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استوى على البعير خارجا الى سفر كبر ثلاثا ثم قال : «**سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين • وانا الى ربنا لمنقلبون**» •• اللهم انا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى •

والسفر نوعان : سفر مادى بالجسم وذلك هو السياحة •• وسفر آخر بالقلب والعقل وذلك هو انتقال المريد من مقام الى مقام ومن تجل الى تجل •

ويختلف الصوفية فى أحوال الاقامة والسفر .. فمنهم من يؤثر الاقامة على السفر، فلايسافر الا لغرض كالغزالى والجنيد وأبى يزيد البسطامى وسهل بن عبد الله • ومنهم من يؤثر السفر مثل أبى عبد الله المغربى وابراهيم بن أدهم • سئل أحد شيوخ الصوفية: هل سافرت أيها الشيخ ؟ قال : سفر الأرض أم سفر السماء ، سفر الارض لا ، وسفر السماء نعم •

والمسافر الى الله تجب عليه حقوق كثيرة ، أول

مايجب عليه طلب العلم الذى تقوم به طهارته وسلامته وحياته وتقواه ، وهذا هو علم الفقه .

أول شيء فى السفر الى الله هو التمسك بالشريعة يقول الصوفية : أصل رياضتنا ومجاهداتنا وجميع أعمالنا التى أعطتنا هذه العلوم والآثار الظاهرة ، انما جاء من عملنا بالكتاب والسنة .

بعد ذلك يأخذ القلب فى سفره ، فى التوجه الى الله . والسفر عند ابن عربى ليس شيئا خارجيا عن القلب ، انما هو مجرد معاملات وأذواق ذاتية فيه ، وأول خطوة فى السفر هى محاسبة النفس ، يقول ابن عربى لمريده :

ــ ومما لابد لك منه محاسبة نفسك ، ومراعاة خراطرك مع الأوقات ، واستشعار الحياء من الله تعالى بقلبك ، فانك اذا استحييت من الله منعك قلبك أن يخطر فيه خاطر لغير الله ، أو يتحرك بحركة لايرتضيها الله تعالى ، ولقد كان لنا شيخ يقيد حركاته فى كتابه بالنهار ، فاذا أمسى جعل صحيفته بين يديه وحاسب نفسه على ما فيها ، وزدت أنا عن شيخى بتقييد خواطرى .

ومن آداب السفر مراعاة الاوقات وحكمها ، بأن ينظر المسافر فى الوقت الذى هو فيه ، وينظر أى شيء أمره المشرع أن يفعله فى هذا الوقت فيفعله فيه . ومن آداب المسافر الى الله حسن الظن بالناس ، وسلامة الصدر ، والدعاء للمسلمين ، وخدمة الفقراء ، وارشاد الناس ، والاحسان اليهم ، وتقوى الله فى السر والعلانية .

قال الله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهـديهم سبلنا**» .

ويقول الصوفية : انظر الى نفســك بعد الجهاد تتضح لك السبل .

ويقول ابن عربى ان السفر قطعة من العذاب .. والمسافر ينتقل من عذاب الى عذاب فلا راحة .. غير انه عذاب تعقبه الراحة .

فى الأدب

قال تعالى مخاطبا خاتم رسله : « **وانك لعلى خلق عظيم** » .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى » . وحقيقة الادب اجتماع جميع خصال الخير ، وحقيقة العبادة ان تعامل الله تعالى بالادب سرا وعلانية .

قال الحسن البصرى : التوحيد يوجب الايمان ، فمن لا ايمان له لا توحيد له ، والايمان يوجب طاعة الشريعة ، فمن لا شريعة له فلا ايمان له ولا توحيد ، والشريعة توجب الأدب . فمن لا أدب له شريعة له ولا ايمان ولا توحيد .

وهذه درجة الادب

ويراعى الصوفية حسن الادب مع الحق تبارك وتعالى .. قال الرازى : سمعت الهجويرى يقول : منذ عشرين سنة ما مددت رجلى وقت جلوسى فى الخلوة .. فان حسن الادب مع الله تعالى أولى .

سئل ابن سيرين : أى الآداب أقرب الى الله تعالى؟ قال : معرفة ربوبيته ، وعمل بطاعته ، وحمد لله على السراء ، وصبر على الضراء .

قال يحيى بن معاذ : من تأدب بأدب الله تعالى ، صار من أهل محبة الله تعالى ، والقوم الصالحون هم الذين استعانوا بالله على أمر الله ، وصبروا على آداب الله . وقال ابن المبارك : نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم .

وقال الصوفية : ثلاث خصال ليس معها غربة : مجانبة أهـل الريب ، وحسن الأدب ، وكف الاذى . وانشدو فى معناه .

يزين الغـريب اذا ماغترب
ثـلاث فمنهن حسن الادب

وثانيـــه حســن أخـــلاقه
وثالثــه اجتنـــاب الريب

قال سهل بن عبد الله : من قهر نفسه بالادب فهو يعبد الله باخلاص .. وقيل : كمال الادب لا يصفو الا للانبياء والصديقين ، وعرف ابن المبارك الادب بقوله : هو معرفة النفس .

ويصل الصوفية فى أدبهم مع الحق تبارك وتعالى الى مستويات رائعة من الحساسية والاخلاص .. يقول الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق سبحانه فيه ترك للأدب . وقال ذو النون المصرى : أدب العارف فوق كل أدب ؛ لان معرفته تؤدب قلبه .

وأكثر الناس أدبا فى الوجود هم الانبياء .. يحكى الحق سبحانه وتعالى عن دعاء أيوب له : « **وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين** » ..

لم يقــل أيوب ارحمنى لأنه حفظ آداب الخطــاب ، والمفروض أن الله يرحمه .

وكذلك عيسى عليه السلام حين قال : « **ان تعذبهم فانهم عبادك** » . وقال ردا على ســؤال الحق له يــوم القيامة هل قال للناس أن يعبدوه هو ومريم أمه ، قال عيسى : « **ان كنت قلته فقد علمته** » .. لم يقل : « لم أقل رعاية لآداب الحضرة » .

قال بعض الصوفية : اذا صحت المحبــة سقطت شروط الادب المعروفة ، واستحقت شروط أعظم منها .. وهذا يعنى انه اذا صحت المحبة وجب على المحب ملازمة أدب أرقى .

وقال ذو النــون المصرى : اذا خــرج المريد عن استعمال الادب فانه يرجع من حيث جاء .

في الحرية

قال الله عز وجل : «**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**» .

قال المفسرون : انما آثروا على أنفسهم لتحررهم من هوى الدنيا ومايشد اليها .

والحرية فى نظر الصوفية أن لايكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات أو أعراض الدنيا ، قال حارثة رضي الله عنه : « عزفت نفسى عن الدنيا .. فاستوى عندى حجرها وذهبها» .

ومقام الحرية عزيز ، ومن كان فى الدنيا حرا كان فى الآخرة حرا ؛ وحقيقة الحرية هى كمال العبودية ، فاذا صدقت لله تعالى عبودية المرء ؛ خلصت من رق الاغيار حريته .

والحرية أن يخرج المرء من رق المخلوقات الى عبودية الله وحده ، يقول المسلم وهو يفتتح صلاته : « الله اكبر » .

يعنى ذلك أن الله أكبر من الدنيا والجاه والمال والولد والسلطان والترف والنعيم ، الله أكبر من هذا كله ؛ وبسبب الله تعالى نحن نسمو على هذا كله ، لا نريد غير الحرية الحقيقية ، لا نريد غير الله ، غير كمال العبودية لله .

يربي الاسلام أتباعه على الحرية بمستواها النفسي والمادي ؛ لايشعر المسلم بعبوديته الا لله ، وتمنحه هذه العبودية استعلاء على كل مغريات الأرض كما تمنحه القوة ازاء كل قوى الأرض .

والحر لايخشى أن يقول كلمة حق في وجه سلطان جائر . الحر لايخشى أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ؛ الحر لايداهن ولاينافق ولايخاف سطوة الطغيان .

واعظم الناس حرية هم الأنبياء ؛ لأنهم أكثر الناس فهما لعبوديتهم لله ، يقف ابراهيم عليه السلام يجادل الطاغية ، ويحدثه أن الله يحيي ويميت ، فيزعم الطاغية أنه يحيي ويميت ، فقال له ابراهيم عليه السلام: **« فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذي كفر »** .

يعلم ابراهيم عليه السلام أنه يقف أمام طاغية يستطيع أن يصدر أمره بقتله . يعرف أنه يقف أمام رجل يدعي الالوهية ؛ رجل يملك كل سلطان الأرض والقوة ، لكنه لايخاف هذا الرجل ، وانما يجابهه بحقيقة أنه مجرد من كل أسباب القوة . .

لايقع ذلك الا لأن النبي كانسان حر . . لايخاف ، وهو يعرف من موقف الحرية الذي يقفه أن القوة كلها بيد خالقه . . وأن كل مايجمعه الطاغية حوله من القوة هي انتفاخة باطلة لاتصمد حتى للكلام . . فضلا عن الفعل . .

قال الحسين بن منصور : من أراد الحرية فليصل الى العبودية .. وكلما ارتقى المرء فى مراتب العبودية زادت حريته .. ان قلقه وخوفه يذوبان .. لايبقى غير احساسه بأنه حر ..

ولاشيء يصنع شجاعة الرجال كالاحساس بالحرية .. ان جبهة تذل لله فى صلاة حقيقية .. هى جبهة لاتطأطيء لأحد ، ولاتذل لأحد ، والذين تنحنى أرواحهم حقيقة لله لاتعرف نفوسهم كيف تنحنى للبشر .. قال بشر الحافى : من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية .. فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى ..

أنشد منصور الفقيه باكيا على ندرة الأحرار :

ما بقى فى الانس حر
لا ولا فى الجن حر

قد مضى حر الفريقين
فحلو العيش مر

قال الامام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى : «واعلم ان معظم الحرية فى خدمة الفقراء» . هذه العبارة المضيئة تضع الاطار الاجتماعى للحرية وتبين هدفها النهائى .

في الارادة

قال الله عز جل : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** » وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فقيل له كيف يستعمله يارسول الله ، قال : يوفقه لعمل قبل الموت» .

والارادة بدء طريق السالكين .. وهي اسم لأول منزلة القاصدين الى الله تعالى .. وانما سميت هذه الصفة ارادة لأن الارادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئا لايفعله ، والمريد هو من له ارادة ، كما أن العالم من له علم ..

غير ان الصوفية ينظرون الى الارادة نظرة أخرى ... المريد في عرف الصوفية من لا ارادة له ، فمن لم يتجرد عن ارادته لايكون مريدا .

وتكلم كثير من أشياخهم عن الارادة . قالوا :

الارادة ترك ماعليه العادة .. وعادة الناس الاقامة في أماكن الغفلة والركون الى اتباع الشهوة .. والاخلاد الى مادعت اليه النفس الأمارة بالسوء .

والمريد منسلخ عن هذا الحال ، هو خارج عن العادة .. وترك العادة أمارة الارادة .. وحقيقة الارادة نهوض القلب في طلب الحق سبحانه .

وقال الدقاق : الارادة لوعة فى الفؤاد ، لدغـة فى القلب .. غرام فى الضمير ، انزعاج فى الباطن ، نيران تتأجج فى النفوس .. ومن صفات المريدين التحبب الى الله بالنوافل .. والاخلاص فى نصيحة العامة .. والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام .

قال الرقى : سمعت الدقاق يقول : نهاية الارادة أن تشير الى الله تعالى فتجده مع الاشارة .. فقلت : فأى شىء يستوعب الارادة ؟.. فقال الدقاق : أن تجد الله تعالى بلا اشارة ..

قال الواسطى : أول مقام المريد ارادة الحق سبحانه باسقاط ارادته . وسئل الجنيد : ما للمريدين يتعلقون بالحكايات ، قال : الحكايات جند من جنود الله تعالى .. يقوى بها قلوب المريدين .. قيل له ألك شاهد ؟ قال : نعم .. قوله عز وجل : « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** » .

ويدق التفريق بين المريد والمراد عند الصوفية .. وكل مريد على الحقيقة مراده الله تعالى ، غير أن القوم يفرقون بين المريد والمراد رغم ذلك ..

المريد عندهم هو المبتدىء والمراد هو المنتهى

والمريد هو الذى يلقى مراده بعد التعب ومقاساة المشاق .

والمراد هو الذى يلقى مايريد من غير مشقة

أى أن المريد متحمل ، والمراد محمول .

قال الصوفية .. كان موسى عليه السلام مريدا لأنه قال : « **رب اشرح لى صدرى** » . وكان محمـــد صلى الله عليه وسلم مرادا لأن الله تعالى قال له : « **ألم نشرح لك صـــدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك** » .

فى الرضا

قال الله عز وجل : « رضى الله عنهم ورضوا عنه »

وروى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يطلع على أهل الجنة فيقول لهم : ياأهل الجنة سلونى .. فيقولون : نسألك الرضا عنا .. فيقول سبحانه : رضاى قد أحلكم دارى وأنالكم كرامتى ..

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا .. هل هو من الأحوال أو من المقامات .. قال أهل خراسان : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل، وهو مقام يتوصل العبد اليه عن طريق الاكتساب . أما العراقيون فقالوا : ان الرضا من جملة الأحوال ، وليس كسبا للعبد بل هو فيض يحل بالقلب كسائر الأحوال ..

وتكلم الصوفية فى الرضا .. قالوا : ان الراضى بالله هو الذى لايعترض على تقديره . وقال أبو على الدقاق : ليس الرضا أن تحس بالبلادة .. انما الرضا أن لاتعترض على الحكم والقضا . .وقال الشيخ: .. الرضا باب الله الأعظم .. وجنة الدنيا .. واعلم أن العبد لايكاد يرضى عن الحق سبحانه .. الا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه لقوله تعالى .. « رضى الله عنهم ورضوا عنه .. »

قال تلميذ لأستاذه .. : هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟

قال : لا .. كيف يعلم ذلك ورضاه غيب .. قال التلميذ : بل يعلم ذلك ..

قال : كيف .. قال : اذا وجدت قلبى راضيا عن الله علمت انه راض عنى .

قال الاستاذ : أحسنت ياغلام ..

قال موسى عليه السلام .. الهى .. دلنى على عمل اذا عملته رضيت به نفسى .. قال الحق : انك لا تطيق ذلك .. فخر موسى عليه السلام ساجدا متضرعا .. فأوحى الله تعالى اليه : ياابن عمران .. ان رضاى فى رضاك بقضائى ..

قال الدارانى : اذا سلا العبد عن الشهوات .. فهو راض .. وقال النصراباذى : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ماجعل الله رضاه فيه ... وقال محمد ابن خفيف : الرضا على قسمين ، رضا به ، ورضا عنه ، فالرضا به أن يرضاه مدبرا ، والرضا عنه فيما يقضى .

قال رويم .. الرضا أن او جعل الله جهنم على يمينه ماسأله أن يحولها الى يساره . وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا اخراج الكراهية من القلب حتى لايكون فيه الا فرح أو سرور . وقال الواسطى : استعمل الرضا جهدك .. ولاتدع الرضا يستعملك .. فتكون محجوبا بلذاته ورؤيته عن حقيقة ماتطالع .

سئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : اذا سرته المصيبة كما تسره النعمة .. وقال الشبلى بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة الا بالله .. فقال له الجنيد .. قولك هذا ضيق صدر ؛ وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء .

فسكت الشبلى .

قال أبو سليمان : طرف من الرضا .. أن ترضى ولو أدخلت النار .. وقال الدمشقي : الرضا رفع الاختيار ، قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد .. وقال المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام .

في الهوى

لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع اليه الصوفية ، ومعهم رجل حسن الصوت ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه فبدأ يقول :

صغير هواك عذبنى
فكيف به اذا احتنكا

وأنت جمعت من قلبى
هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب
اذا ضحك الخلى بكى

قال ذو النون .. هذا هو الهوى ..

ويروى لذى النون في الحب الالهى :

أموت وما ماتت اليك صبابتى
ولا قضيت من صدق حبك أوطارى

منای المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الغنى كل الغنى عند اقتارى

وانت مدى سؤلى وغاية رغبتى ...
وموضع آمالى ومكنون اضمارى

تحمـل قـلبى فيـك ما لا ابثـــــه
وان طال سقمى فيك أو طال اضرارى

ويقول ذو النون فى أحد أدعيته :

«من لم يشبعه الولوع باسمك .. ولم يرده من ظمئه ورود غدران ذكرك ، ولم ينسـه جميع العـلوم رضاه عنك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك .. كانت حياته ميته .. وميتته حسرة ، وسروره غصة ، وانسه وحشة .. الهى لاتترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا الا هتكته .. ولا حاجزا الا رفعته ، ولا بابا الا فتحته . يامن أسأله ايناسا به ، وايحاشا من خلقه .. ارحم غربتى ..»

يقوم الهوى الصوفى على الوحشة من الناس .. وحب خالقهم وحده .. يرى الهوى الصوفى فى كل مظهر من مظاهر الطبيعة آية من آيات الله .. لايرى شيئا الا رأى الله خالقا فاعلا ..

ويقوم هوى الصوفى للخالق على رغبـة المخلوق الفانى فى الكل الخالد .. ومحبة الله حال لانستطيع لها شرحا ولاتفسيرا ولا تعبيرا .. هى حال تجل عن الوصف وتلطف عن العبارة كما يقول القشيرى .

ولكنها تحمل العبد على تعظيم الله وايثار رضاه وقلة الصبر عنه والشوق اليه وعدم القرار من دونه ووجود الاستئناس بدوام ذكره .

قال تعالى : « **والذين آمنوا أشد حبا لله** » .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأيمان .
فقال : أن يكون الله ورسوله أحب اليك من سواهما ..

يصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه الغفور الودود ، وانه قريب من عبده اذا دعاه ، وانه أقرب الى الانسان من حبل الوريد .. وكلها آيات تفيض رحمة بالعباد وعطفا عليهم ..

قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » .

قال تعالى : « انه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » .

في الاستغفار

يقول الامام الغزالى فيما يرويه عن شيوخه .. العبد بين ذنب ونعمة . ولايصلحهما الا الاستغفار والحمد .

والاستغفار من عناصر التوبة .. هو ركن من أركانها .. قال تعالى : « **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** » .

والاستغفار ذكر الله بعد التفكير فى الخطيئة .. يبدأ أمره بتفكير العبد فى خطيئته ، يضيع احساسه بأنها كسب .. (**بلى من كسب سيئة**) بعد أن تضيع حلاوة الذنوب فى قلبه تبدأ مرارة الندم .

ويسير فى حدائق الندم .. يقطف من ثمارها المريرة ماشاء الله له أن يفعل .. وبعدها يتجه الى الله يسأله المغفرة .. بعدها يستغفر الله .. قال تعالى : « **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** » .

وترتبط المغفرة بالغنى .. يعد الله المستغفرين ان يزيد فى أموالهم وأولادهم وأن يقدم اليهم أسباب القوة قال تعالى : (**استغفروا ربكم انه كان غفارا** ،

يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) .

هذه الصلة بين الاستغفار والغنى هى صلة منطقية .. ان انسانا يمضى فى كسب السيئات هو انسان يشغل نفسه بشىء غير أسباب القوة .. تنسف السيئات وقت المرء ، وتشعل النار فى كفايته الانسانية وتنقص من قدرته على أداء عمله ، وتوقعه بالتالى فى **الفقر .**

والاستغفار من الذنوب يصلح فى كل زمان ، يستغفر العوام بعد ارتكاب الذنوب ، ويستغفر الخواص قبل ارتكاب الذنوب ثم لايرتكبونها .. مجرد التفكير فى الذنب وعدم الاقدام عليه يستحق من الخواص أن **يستغفروا الله .**

وليس لاستغفار الانسان وقت محدد .. يستطيع المرء أن يستغفر ربه فى أى وقت وفى كل وقت .. ورغم ذلك .. فهناك أوقات للأستجابة . وبقع من الارض يستجاب فيها أيضا .

من أوقات الاستغفار .. الأسحار .. ثلث الليل الأخير .. تنزل رحمة الله الى السماء الدنيا وتنادى : «هل من مستغفر فأغفر له .. هل من تائب فأتوب عليه .. هل من سائل فأعطيه» .

وهناك بقع من الأرض يقبل الله فيها استغفار عباده .. كالأماكن المقدسة التى تحف بها رحمة الله عز

وجل : الكعبة ومسجد النبى عليه الصلاة والســـلام
والمسجد الأقصى ..

يعتقد الصوفية أن الاستغفار والتوبة يكونان عما سيأتى ويتعلقان بالمستقبل ، يقال لآحاد الناس توبوا عما مضى من الذنوب .. ويقال للصوفية مامضى قــد مضى . والتوبة عما سيجىء بالكف عنه قبل ارتكابه.

فى الغيبة

يتصور بعض الصائمين ان الصوم هو امتناع عن الطعام والشراب ، وحقيقة الصوم انه امتناع الجوارح عن الحركة التى تستهدف غير الله .

ويسلي الناس صيامهم أحيانا بالحديث ، وينزلقون فى الحديث أحيانا الى الغيبة ، ويضيع أجر الصوم ساعتها على صاحبه ، ينصرف جزاء الصائم لمن اغتابه .

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** » . ويصل الاسلام الى حد الحساسية المطلقة فى اعتبار بعض التعليقات الطائرة من الغيبة .

روى ابو هريرة أن رجلا قام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من قبل جالسا، فقال بعض القوم : « ما أعجز فلانا » . فقال صلى الله عليه وسلم : « أكلتم أخاكم واغبتموه » .

وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام : « من مات تائبا عن الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصمما عليها فهو أول من يدخل النار » .

وقال الصوفية : مثل الذى يغتاب الناس ، كمثل من نصب مدفعا يرمى به حسناته شرقا وغربا .

والغيبة تأكل حسنات الانسان فلا تبقى له منها شيئا

قال العارفون : « يؤتى العبد يوم القيامة كتابه فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتى وصيامى وطاعاتى ؟ فيقال : ذهب عملك كله باغتيابك الناس» .

وقيل : يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها . . فيقول : هذه حسنات لم أعملها . فيقال له : بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر . .

قال سفيان بن الحسين : كنت جالسا عند اياس فنلت من انسان ، فقال لى : هل غزوت الترك والروم هذا العام . . قلت : لا . . قال : سلم منك الترك والروم ، وما سلم منك أخوك المسلم . .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال : لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدى ، انهما أحق بحسناتى .

والغيبة درجات ، أخطرها ان يتهم المسلم أخاه بما ليس فيه ، أو يتحدث عنه بسوء هو فيه . الا من ألقى عن وجهه جلباب الحياء .

وأبسط درجات الغيبة أن يعترض المؤمن فى قلبه على مسلم غيره . . حكى الجنيد عن نفسه هذه الحكاية قال :

كنت جالسا فى مسجد انتظر جنازة أصلى عليها ، وجلس أهل بغداد ينتظرون مثلى الجنازة . . فرأيت فقيرا عليه أثر النسك وهو يسأل الناس . .

قلت فى نفسى .. لو عمل هذا عملا يصون به نفسه كان اجمل ..

فلما إنصرفت الى منزلى ، وكان لى شىء من الأوراد بالليل .. كالصلاة والذكر والبكاء .. ثقلت على جميع أورادى .. فسهرت وأنا جالس .. فغلبتنى عيناى فنمت .. ورأيت فى نومى مائدة كبيرة يرقد عليها هذا الفقير الذى كان يسأل الناس فى المسجد . وقيل لى :

ــ كل لحمه فقد اغتبته .

قلت :

ــ ما اغتبته وانما قلت فى نفسى شيئا .

فقيل لى :

ــ ما أنت ممن يرضى منك بمثله .. اذهب فاسأله أن يعفو عنك .

وأصبح الجنيد فبدأ بحثه عن الفقير وعثر عليه الى جوار ماء كان الناس يغسلون عندهم بقولهم فيسقط منها شىء فيلتقطه .. رأى الجنيد الرجل هناك ، وتقدم منه وسلم عليه .. فقال له الفقير :

ــ تعود اليها يا أبا القاسم :

قال الجنيد : لا .

فقال الرجل : غفر الله تعالى لنا ولك ..

اسم الله الاعظم

غاية الاسلام بكل عباداته ايقاظ العقل الانسانى، وهدايته الى التأمل والنظر والتفكير حتى يصل الى حقيقة المعرفة بالله ..

يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن أسمائه ، ويأمرنا تكرما ورحمة أن ندعوه بها ... قال تعالى : « **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى** » .

وقال تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** »

وكما أن لله هذه الأسماء ، فله اسم أعظم ، اذا دعى به سبحانه أجاب ، وان سئل به تعالى أعطى .. عن بريدة رضى الله عنه قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو . وهو يقول : (اللهم انى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا اله الا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)

قال الرسول : لقد سأل الله باسمه الأعظم ..

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ربه ويقول فى دعائه (اللهم لا اله الا الله أنت المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام)

قال الرسول : أتدرون بم دعا الله .. دعا الله باسمه الأعظم .

وعن أسماء بنت يزيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين » : « **والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم** » وفاتحة آل عمران « **ألم • الله لا اله الا هو الحى القيوم** » •

وعن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى اذا دعى به أجاب وان سئل أعطى، الدعوة التى دعا بها يونس حين نادى فى الظلمات الثلاث «**لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين**» •

قال رجل يا رسول الله : هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة •• قال الرسول : ألا تسمع قول الله عز وجل « **ونجيناه من الغم •• وكذلك ننجى المؤمنين** » •

ربما يسأل المسلم عن حقيقة اسم الله الأعظم .. أين هو فى هذه الأسماء كلها .

ربما يحس المؤمن بالحيرة وقد قال الرسول كل هذه الأحاديث عن اسم الله الأعظم ..

كان ذو النون فى الصحراء حين صادفه شيخ يتعبد .

سأله ذو النون :

ـ ما تجريد التوحيد ؟

قال الشيخ العابد :

ـ فقدان رؤية ما سواه

سأل ذو النون :

ـ ما اسم الله الأعظم

قال العابد :

ـ ان تقول الله وانت تهابه ..

قال ذو النون :

ـ كثيرا ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

قال الشيخ :

ـ لأنك تقول الله من حيث أنت .. لامن حيث هو

بهــذا الحوار بين الصــوفى والشيخ العابد يستقر فى القلب المعنى الكريم لاسم الله الاعظم .. أن يقول الله وهو يهــابه .. وان يقــال الاسم وفى القلب تمثل لقدرته واستحضار لكبريائه ونوره .

فى القناعة

قال الله تعالى : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** » . قال المفسرون : الحياة الطيبة فى الدنيا هى القناعة ..

والقناعة هى الاكتفاء بما تدعو اليه الحاجة من مأكل وملبس ، وهى مطلوبة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القناعة كنز لا يفنى)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » . فسرها المفسرون بقولهم : أى ترك مالا حاجة له به ..

وقال بشر الحافى : « القناعة ملك لا يسكن الا فى قلب مؤمن » . وقال الدارانى : « القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد .. هذا أول الرضا وهذا أول الزهد » .

وقال أبو بكر المراغى : « العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد » .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنوعا تكن أشكر الناس ، وأحب

للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » .

فسروا حديث الرسول بقولهم : ان ثمرة القناعة فى الدنيا هى السلامة ، والورع يجتنب ما يضره شرعا فيكون أعبد الناس ، أما القانع فيكون أشكر الناس لأنه يكتفى بما فتح الله به عليه فتكثر عليه نعم الله ، ويرى أصغر نعمة نعما كبرى ، بخلاف الشره فهو لا يرى من النعم الا العظائم فيقل شكره ..

وقال وهب : ان العز والغنى خرجا يجولان يطلبان رفيقا ، فلقيا القناعة فاستقرا .

وقال العارفون : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع .. وضع العز فى الطاعة ، والذل فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة ..

وقال ذو النون المصرى : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على اقرانه . ورأى رجلا حكيما يأكل ما تساقط من البقول على رأس ماء .. فقال له : لو خدمت السلطان لم تحتج الى أكل هذا .. قال الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج الى خدمة السلطان ..

وقيل : لما نطق موسى عليه السلام بذكر الطمع فقال للخضر : **لو شئت لاتخذت عليه أجرا** ، قال الخضر له : **هذا فراق بينى وبينك** . وجاء فى القصص المتخيل : ان موسى عليه السلام حين قال كلمته للخضر وقف ظبى بينهما .. وكانا جائعين .. فاذا جانب

الظبي الذى يواجه الخضر مشوى والجانب الذى يواجه موسى حى كما هو ..

قيل فى تفسير قوله تعالى : (**ان الأبرار لفى نعيم**) هو نعيم القناعة فى الدنيا قبل نعيم الآخرة . وفى تفسير قوله تعالى (**وان الفجار لفى جحيم**) جحيم الدنيا هو الحرص عليها .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : « **قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب** » أى مقاما فى القناعة أنفرد به من أقرانى وأكون راضيا فيه بقضائك ..

قيل لأبى يزيد البسطامى : بم وصلت الى ما وصلت اليه .. قال : جمعت أسـباب الدنيـا فربطتهـا بحبل القناعة ووضعتها فى منجنيق الصدق ورميت بها فى بحر اليأس .. فاسترحت ..

فى الانس بالله

الانس بالله جل تناوه أرق وأعذب من الشبوق عند الصوفية ، لأن المشتاق كان بينه وبين الله تعالى مسافة خفيفة ، بسبب شوقه ، أما المستأنس فأقرب من الله عز وجل .

ومن صدق الأنس بالله ما يروى عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه خطب الى عبد الله بن عمر رضى الله عنه ابنته وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ولم يرد عليه جوابا . ثم لقيه عبد الله بعد ذلك فقال له : « انك كلمتنى فى الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا » .

وروى عن عامر بن عبد الله رضى الله عنه انه قال : ما نظرت الى شىء قط الا كان الله تعالى أقرب الى منه .

كان الصوفى المصرى ذو النون يسيح فى الأرض حين التقى بشيخ فألقى اليه بتحية الاسلام . قال الشيخ : وعليك السلام يا ذا النون .. فتساءل ذو النون دهشا كيف عرفه الشيخ ، فأجاب : بمعرفة الحب .. ودار بينهما الحوار .. سأله ذو النون :

* كيف الطريق الى الله .

- دع طريق الخلاف والاختلاف .

* أليس اختلاف العلماء رحمة .

- الا فى تجريد التوحيد .

* وما تجريده .

- فقدان رؤية ما سواه .

* وهل يشتاق العارف الى الله .

- وهل يغيب الله عنه طرفة عين حتى يشتاق .

* ما اسم الله الأعظم .

- ان تقول الله وأنت تهابه .

* كثيرا ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

- لأنك تقول الله من حيث أنت .. لا من حيث هـو .

* عظنى ..

- حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك .

كلمات الشيخ لذى النون ، هى درجة من درجات الأنس بالله عز وجل .. خاصة اذا لاحظنا جزء الحوار الذى يسأل فيه ذو النون عن اسم الله الأعظم فيصرفه عن ذلك شيخه بأن يقول له ان تقول الله وأنت تهابه .. فاذا الح طالبا المزيد بالسؤال وادعى انه ينادى الله بغير احساس بالهيبة أجابه الشيخ : « لأنك تنادى الله من حيث أنت لا من حيث هو » .

يقصد الشيخ بذلك ان يقول له : انك لم تزل محجوبا فى وجودك عن وجود خالقك فالأنس الحقيقى فقد ووجود : فقد لذات العبد ، ووجود له بالله أو فى الله ، أى فناء عن الذات المشاهدة وأوصافها وآثارها ، وبقاء فى خالقها وحده .. ساعتها تدرك الهيبة العبد وهو يدعو خالقه .

فى المال

هذه الأرض التى نعيش فوقهـــا ونعمرها ٠٠ نأكل منها وننمو عليها ، ونعود اليها ٠٠ هذه الأرض ليست من صنع البشر ، ولا من عمل أيديهم ، وما فى استطاعتهم خلق أرض مثلها ولا دونها ، وما كانوا فى يوم من الأيام أهلا لذلك ولن يكونوا ٠٠ انما هم بشر خلقهم خالق الأرض والســـماء « **بل أنتم بشر ممن خلق** » ٠

يعرف الانسان هذه الحقيقة ولا يجادل فيها ٠٠ يعرف أن حدوده ـ رغم كل الانشاءات البشرية والابداع الانسانى ـ تقف بالخشوع والعجز عند حد الخلق ٠٠ لا يجرؤ مخلوق أن يتعداه أو يفكر فى تجاوزه ٠٠ وقد قيل قديما للمشركين ويقال اليوم لهم :

« ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ٠٠ »

اختص الله عز وجل نفســـه بالخلق ، خلق كل شىء مما نستطيع تصوره ومما نعجز عن تصوره ، خلق ما نستطيع الاحاطة بكنهـه ٠٠ وما نعجز عن الاحاطة بكنهه ٠٠

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هـــو خالق كل شيء فاعبدوه » .

هو الذى خلق السموات والارض وما بينهما .. وهو الذى خلق الأزواج كلها **« سبحان الذى خلق الأزواج كلها ممـــا تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »** . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر .. **« الحمد لله الذى خلق السموات الأرض وجعل الظلمات والنور »** . **« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »** .

الله خالق الكون وكل شيء فى الكون ، وهو نفسه خالق الانسان .. وهو نفسه الذى سخر للانسان كل خلقه الآخر . **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »** .

نعرف من كتاب ربنا أن كل ما فى الكون قد سخر للانسان . **« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »** .

والى جوار ما سخره الله للانسان فى الكون ، جعل سبحانه البشر مستخلفين فى الأرض ..

قال تعالى : **« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »** .

وتسخير ما فى الكون للبشر واستخلاف البشر فى الأرض يعنيان أن أحدا منهم لا يملك شيئا مما يتصور أنه يملكه .. فكل شيء هو ملك لله عز وجل « **لله ملك السموات والأرض وما فيهن** » . والبشر مأمورون بالانفاق مما جعلهم الله مستخلفين فيه ..

قال تعالى فى سورة الحديد : « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » .

وذلك يعنى ان المال الذى نتصور اننا نملكه هو مال الله عز وجل ، وقد سمح لنا بالانتفاع به ، وشاءت رحمته أن يكون الانتفاع به بأكثر من وجه كاستغلاله أو استثماره أو استهلاكه أو التصرف فيه .. رغم كل هذه التصرفات التى ترد على المال يبقى المـال مال الله عز وجل .. بداهة أنه خالقه ورازقه ، وخالق الشيء ورازقه هو مالكه الوحيد ..

قال تعالى : « **وأنفقوا ممـا رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت** » .

بهذه النظرة الصائبة ينظر المتصوفون والعارفون بالله الى ما فى أيديهم من أموال يعرفون أنها وديعة بين أيديهم وقد منحوها كيما يرى الله هل يقوم الانسان عليها فى حدود أمره ونهيه أولا يقوم ..

واذا كان لكل فرد حق الانتفاع بما فى يده من مال الله فى الحدود التى رسمها ، فان للغير حقوقا فرضها الله فى هذا المال وأوجب على من فى يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفا فى مال الله .. هـذه الحقوق هى الزكاة والانفاق والصدقة .

في الانفاق

لله في ماله المودع بين أيدي العبـــاد أكثر من حق .. حق انفاقه فيما خلقه من أجله من اســتمتاع طيب لا يتجاوز الحد ، وحق الزكاة ، وحق اخــراج الصدقة .

والزكاة فريضـــة في المـال ، وهي من أركان الاسلام الخمسة ، وتجب على كل مال حال عليه الحول . أي مضى عليه عام كامل في يد الانســـان .. وتؤدى الزكاة الى الحاكم ليعيدها الى ذوى الحاجة .

بيد أن الاســـلام لا يكتفي بالزكاة وحدها حقا في المال ، انما يرسم معها صورة أخرى من انفاق المال رغم حبه ..

وتقدم آيات الله أحيانا انفاق المال على الصـــلاة والزكاة ، كما تجعلها دائما نتيجة عملية للايمان بالله واليوم الآخر . يقول تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهــكم قبــل المشرق والمغرب ، ولــكن البر من آمن بالله واليــوم الآخــر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصــلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصــابرين في البأســاء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وكل انفـاق يراد به وجه الله هو انفـــاق فى سبيل الله ، وكل انفاق فى سبيل الله ــ اظهره المنفق أو اخفاه ــ يكفر من ســـيئاته ويغفر له من خطاياه .
قال أرحم الراحمين :

« ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضـاعفه لـكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » .

ورغم أن المال مال الله ، ورغم ان العطاء عطـاء الله ، نرى أكرم الاكرمين يثيب على الصدقة الى الحد الذى يجعلها قرضا له سبحانه ، والا فكيف يقترض وهــو صاحب المال ، من ماله الذى تركه وديعة بين يدى عبده .. انما هى الرحمة الشاملة التى تثيب لأنها الرحمة الشاملة .

قال تعـالى : « مثــل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

الله حقا يضاعف لمن يشـاء ، يضـاعف من رزقه الذى لا يعلم حدوده أحد ، ومن رحمته التى يجهل الخلق سعتها ومداها .. والله واسع العطاء لا يضيق عطاؤه ولا ينفد ، والله عليم يعلم بالنوايا ويثيب عليها .

ويقف الشيطان أمام كل صـــدقة يتهيأ المؤمن لاخراجها ، ليحذره من الفقر ويخيفه من المســـتقبل ، ويلقى فى روعه أن هـــذا الانفاق ســـيفقره ويحوجه والشيطان عدو ونصيحته كاذبة .

ذبح النبى صلى الله عليه سلم شاة وتصدقوا بما تصدقوا به منها ، فسأل النبى عائشة رضى الله عنها : « ما بقى منها » . قالت : ما بقى منها الا كتفها .. قال: بقى كلها الا كتفها .. يقصد صلى الله عليه وسلم أن ما تصدقوا به هو الذى بقى له حقا فى الدنيا وفى الآخرة، وأن ما آكلوه منها هو الذى ذهب .. وهذا مصداق قوله عز وجل : ((**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**)) .

أبو سعيد الخراز

أنزل الله تعالى أرواح عباده من عليائها الى عالمنا لهذا نزول كرامة لا نزول اهانة مصداقا لقوله تعالى للملائكة : « **إني جاعل في الأرض خليفة** » . وحين نزلت أرواح العباد الى الأرض نزلت وهي ترتدى ثياب الجسد الإنساني الذى يجري عليه ما يجرى على الجسد من حياة ورزق ورغبة ورهبة وحب وموت . وفى الأرض تنقسم أرواح الناس الى قسمين كبيرين : قسم يشده الحنين الى تلك الحال الصافية التي كان عليها قبل أن يولد .. وقسم يشده طين الأرض .. والصوفية من القسم الأول ..

الصوفية من هذا القسم الذى يريد الرجوع الى الحالة التى كانت عليها الأرواح قبل أن تولد ، فاذا تم لهذه الأرواح ما تريده ، وحدت الله التوحيد الكامل ، وفنيت عن وجودها الزمنى وبقيت بالله وحده . ويعتبر العارف بالله أبو سعيد الخراز أول من تكلم فى علم الفناء . وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم كما يذكره صاحب طبقات الصوفية . ولد أبو سعيد الخراز فى بغداد فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وصحب ذا النون المصرى ، وسريا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم . وله فى الصدق كتاب توارثه الصوفية وأحاطوه بالكتمان وضنوا به على العامة حتى حققه الدكتور عبد الحليم محمود ..

سئل أبو سعيد الخراز عن أوائل الطريق الى الله.
قال : ان أوائل الطريق الى الله تعالى التوبة ، ثم ذكر شرائطها ثم ينتقل العبد من مقام التوبة الى مقام الخوف، ومن مقام الخوف الى مقام الرجاء ، فالى مقام الصالحين ، الى مقام المريدين، ومن مقام المريدين الى مقام المطيعين ومن مقام المطيعين الى مقام المحبين ، ومن مقام المحبين الى مقام المشتاقين ، ومن مقام المشتاقين الى مقام الأولياء ، ومن مقام الأولياء الى مقام المقربين .

ولأبى سعيد الخراز فلسفته فى البلاء .. يرى ان العبد يبتلى حسب دينه ، فان كان فى ايمانه ضعف خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء ، بقدر الكرامة التى أكرمهم بها، حتى راضهم الله بالبلاء واسلس قيادهم به ، وحتى تفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل حتى نصروا .

أما المؤمنون فعلى وجهين: منهم من يبدؤه الله تعالى بالنعمة والمنة والموهبة فيهب له الانابة ، ويحبب اليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويكلؤه بالمنن الكثيرة ، فاذا تمكن الروح فى قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة ، حمل الله تعالى عليه بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة .

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها، والنشاط فى البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد

الصفاء ، وذلك لعلة البلوى والاختبار ، فان جاهد وجد واحتمل المكروه صار الى حد الراحة والبلوغ وضوعف له البر ظاهرا وباطنا .

يروى فى الحديث ان الله عز وجل يأمر جبريل عليه السلام فيقول : « اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى ، فان تأسف عليها فردها عليه وزده ، والا فدعه » .

ومن كلمات أبى سعيد الخراز قوله : ان الله تعالى جعل العلم دليلا عليه ليعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه ليألف ، فالعلم دليل الى الله ، والمعرفة دالة على الله . والعلم بالتعلم ، والمعرفة بالتعرف ، وكل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل .

ومن كلماته العميقة قوله عن موسى عليه السلام اذ طلب رؤية الله تعالى : «لولا أن الله عز وجل أدخل موسى عليه السلام فى كنفه لاصابة مثل ما أصاب الجبل » أى لدك دكا .

وحدة الشهود

للصوفية شطحات ، ومن شطحات أبو يـــزيد البســـطامى المتوفى سنة ٢٦١ قوله : « حججت مرة فرأيت البيت، وحججت ثانية فرأيت البيت وصاحبه ، وحججت ثالثة فلم أر البيت ولا صاحبه . » يرمـــز بذلك الحج الى الســـفر الروحى ، وأول مراحله رؤية العالم وأدراكه حسيا ، ثم ادراكه العالم والله ، ثـــم ادراكه فى حجه الثـــالث الـــكل الذى لم يميز فيه بين البيت وصاحب البيت ، أى ادراكه الله وحـــده وغياب العالم . وذلك تفسير كلمة الجنيد (يذهب هو) أى يذهب العبد وعالمه ولا يبقى غير الله عز وجل ..

وهذه الرحلة التى تقوم بها الارواح الالهيـــــة المجنحة بالتوبة والحب الالهى على اختلاف درجاتها .. هذه الرحلة لا بد أن تنتهى .. بوحدة الشهـــود .. بمعنى أن يرى الصوفى الله فى الكل فاعلا ، ثم ينتهى بأن لا يرى غير الله ، ووحدة الشهود طريق طويل لكل واحد حظه بمقدار ما يأخذ منه .

سئل الجنيد عن التوحيد فقال :

وغنى لى مـــنى قلبى
وغنيت كمـــا غنى

وكنا حيثمـــا كانوا
وكـــانوا حيثما كنـــا

تعجب السائل لأن الجنيد لم يستشهد بآيات من القرآن أو الأحاديث النبوية حين سئل عن التوحيد .. وانما أستشهد بالبيتين السابقين ، ولهذا قال السائل : أهلك القرآن والأخبار .

قال الجنيد : لا .. ولكن الموحد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره ، يريد الجنيد أن يقول ان الموحد يستدل بكل شيء على وحدانية الخالق ..

وفى كل شيء له آيـــة
تدل على أنــه الواحد

التصوف صفاء ومشاهدة ، والطريق الى الصفاء يمر بالعبادة ، والمشاهدة هي وحدة الشهود أو خاتمة المطاف .. قال أبو بكر الشبلى المتوفى سنة ٣٣٤ : التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير ، وهذه شطحة من شطحات الصوفى تعنى وحدة الشهود . شهود الصوفى لله تعالى فى كل شيء . ومثال هذه الكلمة قول أبى عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ : التصوف غض الطرف عن كل ناقص بمشاهدة من هو منزه عن كل نقص .

ووحدة الشهود هي عين التوحيد وهي شيء آخر غير علم التوحيد .. هي حال نفسية أو تجربة روحية يعانيها الصوفى ، وليست عقيدة ولا دعوى فلسفية يحاول برهنتها ، ولا علما يطالب الغير بتصديقه . والفرق بين علم التوحيد ووحدة الشهود أو عين التوحيد هو الفرق بين العلم العقلى وبين التجربة الروحية .. ان الصوفى يرتقي بعد العلم الى ممارسة الشهود ذاته ..

أشهد أن لا اله الا الله ·· بمعنى لا أشهد غير الله

ووحدة الشهود أو عين التوحيد أو الفناء ، هى أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية ، وهى التى تميز حياتهم عن حياة غيرهم من العابدين · يقول أبو سعيد الخراز : أول مقام لمن وجد التوحيد وتحقق بذلك ، فناء ذكر الأشياء من قلبه وانفراده بالله عز وجل ·

ويقول أبو بكر الشبلى لرجل : أتدرى لم لا يصح توحيدك · قال : لا · قال : لأنك تطلبه بك ·· بمعنى أن الرجل لم يزل يرى نفسه ، وحين لا يرى سوى الله يصح توحيده ·

ووحدة الشهود تبدأ بأن يرى العابد ربه ثم يحبه ·· فى النسمة العليلة ، فى الزهرة الندية ، فى النجم المتألق ، فى شعاع الشمس وعذوبة الغروب وجمال الخير وروح الجلال · ثم يترقى العابد ، يبدأ يحب ، والحب يتعلل الى محبوبه بكل شيء ، ولا يتسلى عنه بشيء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره · وكثيرا ما أنشد تعبيرا عن حاله :

أسائلكم عنها فهل من مخبر
فمالى بنعم ـ مذ نأت دارها ـ علم

فلو كنت أدرى أين خيم أهلها
وأى بلاد الله ـ اذ ظعنوا ـ أموا

اذن لسلكنا مسلك الريح خلفها
ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

ثم يترقى العبد فى العبادة فيصير فرحه فى العطاء

بالمعطى ، وتصير لذاته فى اللذات بخـــالق اللذات . ويصبح تنعمه فى النعم بالمنعم دون النعم ، لأن ذكر النعمة عند ذكر المنعم حجاب ، ورؤية النعمة عند رؤية المنعم حجاب .

يقول صلى الله عليه وسلم : « جبلت القوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها » فواعجبـــا ممن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته اليه ؟

الصحو والسكر

كان التصوف حرقة فصار خرقة ·

تصور المسلمون ـ في فترات تأخرهم ـ بعد هجرهم لكتاب الله ، ان التصوف يمكن أن يكون رسما بدلا من أن يكون حقيقة ، وانه يمكن أن يكون ادعاء بدلا من أن يكون عملا ·· ولقد ذهب بعض مدعى التصوف الى القول بأن الصلاة والصيام والحج حركات لا تلزمهم اذ وصلوا في تصوفهم الى درجة تخطوا فيها مرحلة العبادة الى مرحلة القرب ، وهى مرحلة تسقط فيها التكاليف ، بداهة ان الوصول الى الغاية يغنى عن الوسيلة

وهذه الدعوى تقف ضد الدين كما انها تقف ضد التصوف ، ولكبار أئمة التصوف آراؤهم الحاسمة فى ذلك ·

قيل للجنيد يوما : ان أهل المعرفة بالله يصلون الى ترك الحركات أو التكاليف من باب البر والتقوى الى الله تعالى ·· فقال الجنيد : ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال ، وهذه عندى جريمة عظيمة والذى يسرق ويزنى احسن حالا من الذى يقول هذا · وان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، واليه رجعوا فيها ·

كان التصوف حرقة فصار خرقة ، كان حرقة فى القلب فصار خرقة على الجسد ، كان حقيقة ثم صار

رسما .. وحين ينزع الله الحياء من قلوب عباده ، فانهم يضلون الطريق الى عبادته ولا يوقروته سبحانه ، والذين يتطوحون أو يتمايلون أو يتواجدون في مجالس الذكر ليسوا على شيء .

يتداول الصوفية كلمتين هما الصحو والسكر .

يعرف القشيري السكر بأنه غيبة بوارد قوي ، ويأتى هذا الوارد عندما يتجلى الحق للعبد بصفة من صفات جماله فيقع العبد فى حالة أشبه ما تكون بحال السكر ، ولقد برر هذا من أخذ بمذهب السكر من الصوفية بأن الصحو فى نظرهم يقتضى وجود الصفات البشرية التى هى أعظم حجاب يحول بين العبد وربه .

وهذا الفهم خطأ ، ولسوف نرى كيف تحسمه مواقف أئمة الصوفية كالجنيد وأصحابه . انهم يرون أن السكر يخرج بالعبد عن حالته الطبيعية ويفقده سلامة العقل الواعى والقدرة على التصرف .

والسكر فى نظر الجنيد وأصحابه أشبه بميدان لعب الأطفال واليق بالمبتدئين . والسكر عندهم توهم فناء الذات مع بقاء الصفات ، وهذا هو الحجاب بعينه ، أما الصحو ، فهو رؤية بقاء الذات مع فناء الصفات ، وهذا هو الكشف .

ومما يزيد فى قيمة الصحو فى نظر الجنيد انه لا مجال فيه لاظهار المواجد . واظهار المواجد من الامور التى عاب بها الجنيد على الصوفية واعتبرها من علامات ضعف الروحانية .

دخل عليه الشبلى متواجدا كعادة الصـوفية ، فقال له الجنيد :

ــ ان كنت ترى نفسـك فى حضرة الله فهـذا سوء أدب ، وان لم تكن فى حضرة الله فبماذا ظفرت حتى تتواجد .. فهتف الشبلى : التوبة يا امام .

وكان الحلاج ممن يظهرون مواجدهم ولهذا رفض الجنيد صحبته . أتى الحلاج يوما الى الجنيد فقال له الجنيد :

ــ ماذا جاء بك الينا .

قال الحلاج : جئت لصحبة الشيخ .

قال الجنيد : أنا لا أصحب المجانين . ان الصحبة تقتضى كمال العقل .

قال الحلاج : يا شيخ أن الصحو والسكر صفتان للعبد، والعبد محجوب عن ربه حتى يفنى عن صفاته.

قال الجنيد : يا ابن منصور انك أخطـأت فى الصحو والسكر . ان الصحو سلامة الحال مع الله ، والسكر المبالغة فى الشوق والمحبة ، وليس واحد من هذين ينال بالكسب . يا ابن منصور ، ان فى كلامك حماقة ومخرفة .

ومن تعبيرات الجنيد فى الوجد قوله :

قد كان يطربنى وجدى فافقـدنى
عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود

الوجد يطرب من فى الوجـد راحته
والوجد عند شهود الحق مفقـود

ابن عطاء

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطـاء لأدمى .. من مشايخ الصوفية وعلمائهم .. قال عنـه بو سعيد الخراز : التصوف خلق وليس أنابه ، وما رأيت من أهله الا الجنيد وابن عطاء . كانت كلمات هذا الصوفى قريبة العهد من الله ، تتوهج بنور الصـدق .. ومن كلماته ومارواه من كلمات شيوخه .

● فى البيت مقـام ابراهيم ، وفى القلب آثار الله تعالى ، وللبيت أركان ، وللقلب أركان ، وأركان البيت من الصخر ، وأركان القلب معادن أنوار المعرفة .

● خلق الله تعالى الأنبياء للمشاهدة لقوله تعالى ((**أو ألقى السـمع وهو شـهيد**)) وخلق الصـالحين للملازمة فقال تعالى ((**وألزمهم كلمة التقوى**)) وخلق العوام للمجاهدة فقال تعالى ((**والذين جاهدوا فينـا لنهدينهم سبلنا**)) .

الام تسكن قلوب العارفين ان لم تسـكن الى قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم . لأن فى بسم الله هيبتـه . وفى اسم الرحمن عونه ونصرته ، وفى اسم الرحيم محبته ومودته .

● لما عصى آدم بكى عليه كل شىء فى الجنة ، الا الذهب والفضة ، فأوحى الله تعالى اليهما لم لم تبكيـا

على آدم . فقالا ما كنا لنبكى على من يعصيك . فقال عز وجل ، وعزتى وجلالى لأجعلن قيمة كل شىء بكما ، ولأجعلن ابن آدم خادما لكما .. الا المتقين .

● أسامى بنفسى ذلة واستكانة
الى الخلة العلياء من جانب الكبر

اذا ما أتاني الذل من جانب الغنى
سموت الى العلياء من جانب الفقر

● الانصاف فيما بين الله وبين العبد فى ثلاثة . فى الاستعانة والجهد والادب . فمن العبد الاستعانة ومن الله القربة ، ومن العبد الجهد ومن الله التوفيق ، ومن العبد الأدب ومن الله الكرامة .

● من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فى أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية .

● من وحشة القلوب عن مصادر الحق أنسها بالأجناس ، و من أنس قلبه بالله استوحش مما سواه .

أجلك ان أشكو الهوى منك انني
أجلك أن تومى اليك الأصابع

وأصرف طرفى نحو غيرك عامدا
على أنه بالرغم نحوك راجع

● اذا صد من أهوى صددت عن الصد
وان حال عن عهدي أقمت على العهـــد

فما الوجد الا أن تذوب من الوجد
وتصبح في جهد يزيد على الجهـــد

● العلم الأكبر هو الهيبة والحياء ، فمن عرى منهما عري عن الخيرات .

الجنيد

حين ذهبت حقائق الأشياء وبقيت أسماؤها ، كان الله يبعث عباده الاولياء ليزداد عدد الصادقين فى الصالحين ومن أئمة الصوفية وسادتهم أبو القاسم الجنيد ، أصله من نهاوند ، ولد ونشأ بالعراق ، أسند الحديث وكان فقيها وصوفيا ·

صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى وغيرهما من سادة الصوفية واعتبر من أئمتهم · توفى سنة ٢٩٧ ، وهو المسئول عن نقل التوحيد من ميدان علم الكلام بجفافه ومزالقه الى الميدان الصوفى بوهجه واستنارته ، أو هو المسئول عن تقل التوحيد منميدان النظر العقلى الى ميدان التجربة الروحية · بداهة ان العقل الانسانى المحدود ليس أداة لقياس الجلال غير المحدود ·

والتوحيد فى نظر الجنيد أربع درجات :

١ ـ توحيد العوام ، وهو اقرار بالوحدانية وانكار للأرباب والانداد مع السكون الى الرهبة والرغبة المتعلقين بما سوى الله وعلى ذلك توحيد أكثر أهل الأرض اليوم ·

٢ ـ توحيد أهل الظاهر ، وهو الاقرار بالوحدانية وانكار الارباب والانداد مع اقامة الامر والانتهاء عن النهى فى الظاهر · والسكون الى الرغبة والرهبة ·

٣ ـ توحيد الخواص على وجهه الأول : وهـــو الاقرار بالوحدانية على الوجه السابق ، مع اقامة أوامر الشريعة فى الظاهر والباطن ، وازالة الرغبة والرهبـة المتعلقين بكل ما سوى الله •

٤ ـ توحيد الخواص على وجهه الثانى ، وهـــو أن يصل العبد الى حال يكون فيها شبحا قائما بين يدى الله •

والتصوف فى نظر الجنيد ليس كلمات تقال فى نهاية الأمر ، لم يأخذ القطب التصوف عن القيل والقال ،ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المالوفات والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى ، وأصـــله (هجرة) الدنيا ، كما قال المحاسبى : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى • كان التصوف عند الجنيد اذن نعتا أقيم العبد فيه •• أى صفة يقيـم فيها •

ولأن عمله كان فى القمة ، كانت أقواله غنيـــة فى معانيها بعيدة الغور فى مراميها ، ولهذا استعصت بعض كلمات الجنيد على كبار رجال التصوف أمثال ابن عربى الذى صرح بأنه لا يفهم كلامه •

لقد كان الجنيد كما يقول القشيرى من أكثـــر الصـــوفية وقوعا تحت غلبة الحال ، والاقوال لا تفى بالترجمة عن الاحوال ، فهو وان كان يشـــير من طرف خفى الى الحقيقة ، فهو لا يستطيع ان يصحب المريد الى غاية الطريق •

والتصوف فى نظر الجنيد تجربة شخصية لايكفى

لتوفرها أن يصحب المريد شيخا يتلقى من يديه الهداية ان الهداية لا تجيء الا لمن يسعى اليها وحده ، ومعرفة الله تعالى لا تنبعث الا من قرار تجربة صوفية خالصة ، وكل انسان مسئول عن عمله ، وكل انسان يولد وحده ويعرف الله وحده ولا واسطة بين العبد وربه الا الوحي الذي ابلغه الانبياء ونطقت به الكتب السماوية .

يقول الجنيد ، الطرق كلها مسدودة على الخلق الا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ، ولزم طريقته ، فان طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه .

قال الجنيد : « ان الله تعالى يخلص الى القلوب من بره حسب ما خلصت القلوب به اليه من ذكره » فانظر ماذا خالط قلبك .

المحاسبى

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، هو أعظم مؤلف صوفي في القرن الثالث الهجرى ، وأستاذ الغزالي في معالجة المسائل الصوفية ، وهو كما يقول كتاب الطبقات من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والاشارات ، وله كتب مشهورة أهمها (الرعاية لحقوق الله) الذى تأثر به الغزالى فى كتابه الاحياء .

تكلم فى المحبة الالهية فقال : هي حب الايمان ، وذلك إن الله قد شهد للمؤمنين بالحب فقال عز وجل : «**والذين آمنوا أشد حبا لله**» فنور الشوق من نور المحبة، وزيادته من حب الوداد . وانما يهيج الشوق فى القلب من نور الوداد ، فاذا أسرج الله ذلك السراج فى قلب عبد من عباده لم يتوهج فى فجاج القلب الا استضاء به . وليس يطفىء ذلك السراج الا النظر الى الأعمال بعين الأمان

وتقوم فلسفة الحب عند المحاسبى على أساس من التواضع وعدم الاطمئنان لعمل العبد ، فهو لا يطمئن الى العمل مهما عظم قدره من الطيبة وبلغ حظه من الصلاح لأن الشعور بالأمان وحسن الظن بالأعمال يولد فى النفس الكبرياء والأمن من مكر الله أو تدبيره ، ومن أمن على عمله واطمأن اليه صدئت نفسه وكان عمله الطيب

حجابا بينه وبين ربه .. فاذا أمعن العبد فى رضاه عن نفسه سلبت المحبة الحقيقية من قلبه .

المفروض اذن أن يظل العبد رغم أعماله الصالحة فى مقام الخوف الذى تنبعث منه المحبة . كيف نعرف المحبة عند المحاسبى اذن · يقول المحاسبى : ليس للحب شبح ماثل ولا صورة فيعرف بجبلته وصورته ، وانما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التى يجريها الله على لسانه ، وما يوحى الى قلبه · وأوضح شواهد المحبة لله شدة النحول بدوام الفكر ، وطول السهر بسخاء النفس بالطاعة ، وشدة المبادرة خوف الموت ·

كيف الطريق لهذه المحبة اذن ·· الطريق الى المحبة يمر بالزهد لكنه ليس هو الزهد ، الزهد فى كل شىء غير المحبوب · وهذا هو الزهد الذى يورث الراحة · يقول المحاسبى : « العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الانابة » ·

سمى المحاسبى على اسمه لأنه ممن يحاسبون انفسهم فى الدنيا قبل ان تحاسب فى الآخره ، ولأنه من الملامتيه الذين يلومون أنفسهم أو يملكون نفوسا لوامة من نوع النفوس التى أقسم الله تعالى بها . ويرى المحاسبى ان المحاسبه والموازنة تكون فى أربعة مواطن : فيما بين الايمان والكفر ، وفيما بين الصدق والكذب ، وبين التوحيد والشرك ، وبين الاخلاص والرياء ·

والمحاسبى يرى آن الباطن هو هدف الصوفى قبل الظاهر ، فمن أجتهد فى باطنه أورثه الله تعالى حسن

معاملة ظاهره، ومن صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين الله ظاهره بالمجاهده واتباع السنه .. ومن قام بتحسين معاملته في ظاهرة مع جهد باطنه ورثه الله تعالى الهداية اليه .. قال عز وجل ((**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**)) .

من رأيه ان التسليم هو الثبوت عند نزول البلاء ، من غير تغير العبد في الظاهر والباطن، وسئل عن الرجاء فقال : الطمع في فضل الله تعالى ورحمته ، وصدق حسن الظن عند نزول الموت . وهو يعتقد أن من لم يشكر الله على النعمة فقد استدعى زوالها ، وان أقهر الناس لنفسه هو الراضي بالمقدور ، ويرى ان لكل شيء جوهرا ، وجوهر الانسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

الحزن عنده على وجوه ، حزن على فقد أمر يحب وجوده ، وحزن مخافة أمر مستقبل ، وحزن لما أحب من الظفر بأمر فيتأخر عن مراده ، وحزن يتذكر من نفسه عصيان الحق فيحزن . وذلك أقسى ألوان الحزن وأمرها .

لا يمكن عند المحاسبى ادراك الحق تبارك وتعالى ، وأكمل العاقلين من أقر بالعجز عن ادراك كنه معرفته .

فى منزلة الدنيا

قال عيسى عليه السلام للحواريين : ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا ، كلوا خبز الشعير ، واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا آمنين سالمين ، ان حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وان عباد الله ليسوا بالمتنعمين .

وقال الصوفية : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع فى القلب الشهوة ، ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا .

وقال عيسى بن مريم : يا ابن آدم اتق الله حيثما كنت ، وكن فى الدنيا ضيفا ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولاتهتم برزق غد فانها خطيئة .

وقال عليه السلام : لا يستطيع أحدكم أن يتخذ من موج البحر دارا ، فلايتخذ أحدكم من الدنيا قرارا .

وقال سفيان الثورى : لا يستقيم حب الدنيا وحب الاخيرة فى قلب مؤمن كما لايستقيم الماء والنار فى اناء ، وطالب الدنيا مثل شارب البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يهلك .

وينصح الصوفية بالدين بدلا من الدنيا .. قال شاعرهم :

أرى رجـــالا بأدنى الدين قـد قنعوا
ولا أراهـم رضـــوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيــا الملوك كمـا
اســتغنى الملوك بدنيــاهم عن الدين

روى أبو مصعب عن مالك قوله :

ـ لاتكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فان القـلب القـاسي بعيـد من الله ولـكن لاتعلمون ، ولاتنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فانما الناس رجـلان .. معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

وقال عيسى بن مـريم للحـواريين : اعملوا لله ولاتعملوا لبطونكم ، انظروا لهذه الطير تغدو وتروح لاتحرث ولاتحصد والله يرزقها ، فان قلتم نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظروا لهذه الوحوش فانها تغدو وتروح لاتحرث ولاتحصد والله يرزقها .

ينظر الصالحون الى الدنيا باعتبارها دارا يعبرونها للتزود ، ليست دارا للقرار ، لايبنى العاقل بيته على مياه البحر أو رمال الشاطىء الهشة ، لايجعل الصـوفى كنزه فى بيته ، انما يجعل كنزه فى قلبه ويسـلم قلبـه للسماء .

مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة وقال :رب، مر هذه المدينة أن تجيبنى ، فأوحى الله الى المدينة أن تجيب ، سألها عيسى أين سكانك وماذا فعلت أنهارك

وقصورك وأشجارك ؟ قالت المدينة : يبست أشجاري وجفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني ، قال عيسى : أين أموالهم ؟ قالت : جمعوها من الحلال والحرام وهاهي في بطني جميعا ولله ميراث السموات والارض .

ويقول عيسى ساعتها : عجبت من ثلاثة اناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه .

فى الموت

قال الله تعالى : ((**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم**)) .

قال المفسرون : الطيب هو صاحب النفس الطيبة، الذى يبذل مهجته لله ، ولا يثقل عليه الرجوع لمولاه.

دخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك .. قال : « أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبى .. قال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمعان فى قلب عبد الا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخاف ».

ويختلف حال الصوفية وهم يموتون ، فمنهم من تغلب عليه الهيبة ، ومنهم من يغلب عليه الرجاء ، ومنهم من يقع له ما يوجب السكون والثقة .

قال بلال حين حضرته الوفاة : واطرباه . فقالت زوجته : واحزناه . قال بلال : وافرحاه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

دخلوا على مكحول وكان صوفيا يغلب عليه الحزن فى حياته ، فلما حضرته الوفاة كان يضحك .. سئل : كيف تضحك ؟ قال : لم لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره ، وجاء لقاء من كنت أرجوه وآمله .

سئل الدينورى فى مرض موته : كيف يجد العلة؟ قال : اسألوا العلة عنى كيف تجدنى . وقيل له : قل

لا اله الا الله ، فحول وجهه الى الجدار وقال : أفنيت كلى بكلك ، هذا جزاء من يحبك .

قال رويم : حضرت وفاة أبى سعيد الخـــراز .. فانشد قبل أن يموت :

حنين قلوب العارفين الى الذكـر
وتذكارهم وقت المناجاة للســـر

أديرت كـؤوس للمنايا عليهمو
فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذى السكر

همومهمو جـــوالة بمعســـكر
به أهـــل ود الله كالأنجم الزهـــر

فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه
وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى

فما عرسوا الا بقرب حبيبهـــم
ومــا عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

روى عن الاصبهانى انه كان بمكة فخـــرج يريد المدينة .. فلما وصل الى بئر ميمونة اذا شاب هنـــاك راقد على الارض .. فهرع اليه فألفاه يموت .. قال له:

قل لا آله الا الله . ففتح الشاب عينيه وقال :

أنا ان مت فالهوى حشــو قلبى
وبداء الهـوى تموت الكـــرام

في البعث

قال تعالى : «**ذلك بأن الله هو الحق .. وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور** » .

يعرف المؤمنون بالقرآن الكريم ، ان لنا بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى خالدة . حياة أخرى يجزى فيها كل انسان بما عمل . ان خيرا فخير وان شرا فشر . يقول تعالى : « **ثم انكم بعد ذلك لميتون .. ثم انكم يوم القيامة تبعثون** » .

وفكرة البعث لا تجد قبولا من الأذهان المغلقة ، كما انها لا تستريح وسط الجهل ، ولا تستطيع أن تتعامل مع الغباء ، وكثيرا ما يتساءل الذين يتصورون ان الحياة مادة فحسب : كيف نعود الى الحياة بعد صيرورة التراب .

قال تعالى : « **وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** » .

ولئن كان البعث حقيقة من الحقائق التي جاء بها الدين ، فهو أيضا من الحقائق التي يأمر بها العقل السليم والمنطق الصحيح .

ذلك ان العقل والمنطق والعلم الحديث توجب

أن يكون بين الفضيلة والخير . والرذيلة والشر ، رابطة العلة والمعلول ·· بمعنى ان الفاضــل يجب أن يلقى جزاءه على عمله الصالح ، وان الأثيم يجب أن يلقى جزاءه على عمله السيء ·

وهذا العدل المطلق لا وجود له فى الأرض ·· فما أكثر الفضلاء التعســاء فى حياتهم ، وما أكثر الاشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا وزينتهــا ·· واذن فمن العدل أن تكون هناك حياة أخرى يجـد فيها النــاس ما افتقدوه فى الارض من عدالة مطلقة .

يقول تعالى ، فى وصف يوم القيامة والحساب : « **لا ظلم اليوم ، اليوم تجزى كل نفس بمـــا كسبت** » وهذه الحقيقة البديهية يقود اليها المنطق السليم والفكر النظيف ·· ان (ايمانويل كانت) · آحد أعلام مذهب الواجب فى الأخلاق فى العصر الحديث – يرى ان الاتحاد بين الفضيلة والسعادة غير واقع فى الحياة ·· وغير ممكن أيضا ·· وتلك مشكلة يجب حلها · وقد رأى فى سبيل حلها عقليا انه لا بد من فرض وجــود الله وخلود الروح ·· وجعل هذا من بديهيات علم الأخلاق ومسلماته ·

ويرى الفيلسوف ابن رشد ان الانتقال من هذه الحياة الدنيا الى الحياة الخالدة أمر يتفق فيه العقــل والدين · أو هو على حد قول ابن رشد ·· أمر اتفقت عليه الشرائع وقامت عليــه البراهين عند العلمــاء ، فالانسان لم يخلق عبثا فى هذه الحياة ، بل خلقه الله لغاية جليلة ، يعتبر تحقيقها بأفعاله ثمرة وجوده فى

دار الدنيا .. فلا مناص اذن من أن يبعث بعد موته ليؤدى حسابا عما فعل .

قال تعالى : « **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون** »

قال أبو العلاء المعرى وهو يكشف بشعره الجميل عن غباء الذين ينكرون البعث والحياة الأخرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما :
لا تحشر الاجساد ، قلت : اليكما

ان صح قولكما فليس بضائرى
أو صح قولى فالخسار عليكما

قال تعالى وهو يرد على الذين يتساءلون عن عودتهم الى الحياة بعد أن صاروا ترابا ورفاتا ، قال عز وجل : **قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا . قل الذى فطركم أول مرة** » .

من أدعية الشاذلى

الهى اذا طلبت منك القوت فقد طلبت غيرك ، وان سألتك ما ضمنت لى فقد اتهمتك ، وان سكن قلبى الى غيرك فقد أشركت بك ، جلت أوصافك عن الحدوث فكيف أكون معـــك ، وتنزهت عن العلل فكيف أكون قريبا منك ، وتعاليت عن الاغيار فكيف يكون قـــوامى بغيرك .. اللهم انى أسالك توحيدا لا ننفى به ضدا ، ويقينا لا ندفع به شكا .

يا الله يا نور ، يا حق ، يا مبين ، افتح قلبى بنـــورك ، وعلمنى من علمك ، واحفظنى بحفظك ، وأسمعنى منك ، وفهمنى عنك ، وبصرنى بك ، وسبب لى سببا من فضـــلك ، تغننى به من الذل . وتصـــلح لى به الدنيا والآخـــرة ، وتوصلنى به الى النظر الى وجهك فى جنة الفردوس ، انك على كل شىء قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير .

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بمحمد وحزبه على الرضا منك ، مع الســلامة من الحياء والخجل والذل بما سلف منـــا من أعمـــال المخلطين . اللهم اعذرنا فى جهلنا ، ولا تؤاخذنا بغفلتنا عنك ، ولا بسوء أدبنـــا معك ومع المـــلائكة الكرام الـــكاتبين . اللهم اغفر لنـــا ذنوبنا وغفلتنا وجهلنا بنعمك ، واغفر لنا قلة حيائنـــا منك ، وأقبل علينا بوجهك ، ولا تفتنا بشىء من خلقك انك على كل شىء قدير .

اللهم انا نتوسل بك اليك · اللهم انى أقسم بك عليك · اللهم كما كنت دليلى عليك فكن شفيعى اليك ·· اللهم ان حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت، حتى تمحو ذلك بذلك · لا الذى اطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر ·· ولا الذى عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت وقولك الحق : « **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** » ·

اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم وأعز وأكرم من ان تطاع الا باذنك ورضاك ، أو تعصى الا بحكمك وقضائك ، الهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت · اطعتك بارادتك والمنة لك على، وعصيتك بتقديرك والحجة لك على ، فبوجوب حجتك وانقطاع حجتى الا ما رحمتنى ، وبفقرى اليك وغناك عنى الا ما كفيتنى ··· يا أرحم الراحمين ·

اللهم انى لم آت الذنوب جرأة منى عليك ولا استخفافا بحقك ·· ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، وأحاط به علمك ، ولا حول ولا قوة الا بك والعذر اليك وأنت أرحم الراحمين · اللهم ان سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك ، لم تملكنى من ذلك شيئا ، فاذا قضيت بشىء فكن انت وليى ، واهدنى الى أقوم السبل ، ياخير من سئل، ويا أكرم من أعطى، ويا رحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدا لا يملك الدنيا ولا الآخرة · انك على كل شىء قدير ·

الهى مننت على بالإيمان والمحبة والطاعة والتوحيد .. فأحاطت بى الغفلة والشهوة والمعصية ، وطرحتنى النفس فى بحر الظلم ، فهى مظلمة ، وعبدك محزون مهموم مغموم ، وقد التقمه نون الهوى ، وهو يناديك نداء نبيك وعبدك يونس بن متى ويقول : « **لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين** » .

فاستجب لى كما استجبت له ، انبذنى بعراء المحبة ، فى محل التفريد والوحدة ، وأنبت على أشجار اللطف والحنان ، انك انت الله الملك المنان ، وليس لى الا أنت وحدك لا شريك لك ، ولست بمخلف وعدك لمن آمن بك ، اذ قلت وقولك الحق : ((**فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** » .

يا الله يا فتاح ياعليم ياغنى ياكريم ، افتح قلبى بنورك ،وارحمنى بطاعتك ، واحجبنى عن معصيتك . وامنن على بمعرفتك . وأغننى بقدرتك عن قدرتى ، وبعلمك عن علمى ، وبارادتك عن ارادتى ، وبحياتك عن حياتى ، وبصفاتك عن صفتى ، وبوجودك عن وجودى ، وبدنوك عن دنوى ، وبقربك عن قربى ، وبحبك عن حبى ، وبصدقك عن صدقى ، وبحفظك عن حفظى ، وبنظرك عن نظرى ، وبتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وبحولك وقوتك عن حولى وقوتى ، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمى وعملى . انك على كل شىء قدير .

في الاشارات الالهيه

من كلمات أبي حيان التوحيدي :

من استأذن على الله اذن له ، من قرع باب الله دخل ، كيف تنتفع بالنصيحة ، وانت مقيم على الخطيئة خوف الله جنة من كل كارثة • معرفة الله روضة من رياض العقل، سبحان من انطق الليل والنهار، ويا لعزة من يستمع اليهما ويفهم عنهما • كم من عقل أسير عند هوى أمير ، الجدل في الدين مطردة لليقين • الاتباع خير من الابتداع ، الخير شجرة والعمل به ثمرته •

الشريعة مأدبة الله للعباد . التوحيد حياة النفس . المعرفة الفوز بالقدس . من تبع هواه عبد غير الله ؛ أكرم نفسك ما أعانتك على طاعة الله ؛ اهن نفسك ما عاقتك عن خدمة الله . الويل ان ضاقت رحمة الله ـ مع سعتها ـ عنه ، لك من الله نسب أصح من نسبتك الى أبيك ، فاحفظه فانه ينفعك .

اذا غفلت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله ، فانه ان فاتك من حكمته ما يشفيك ، فلن يفوتك من قدرته ما يغنيك . سق عقلك الى ملكوت الله ، ولا تقحمه في جبروت الله • اذا استأثر الله بشيء فاله عنه ، واذا تلطخت بعار فاغسله عنك بالانابه• ربك يحسن اختياره لك ، فلا تتعرض انت لفناء الابد بسوء اختيارك لنفسك

من انقطع الى غير الله وكله الله اليه ، من صلح مع الله لم يفسد مع غيره ، من حارب الله نسف ، ومن سالم الله سلم • أصدق الكلام كلام الله ، ما أقرب العبد من الله ان فطن لما فيه • لله عندك وديعة ، فاحفظها وتوسل اليه بها •

المعرفة مصباح القلب • التوحيد نور الله في قلب العبد • التوكل حصن المؤمن ، الوجد حقيقة الحال • العقل رسول الحق. الصمت روضة الفكر، اللفظ ثمرة الارادة ، الارادة تصور القلب • العمل شعار البدن ؛ العلم شعور الروح • العقل صعود ، والهوى هبوط •

اذا رأيت الله عز وجل يؤنسك بذكره • ويوحشك من خلقه ، فقد ارادك • واذا رأيته يؤنسك بخلقه ، ويوحشك من ذكره ، فقد طردك . ومن دواعي المقت ذم الدنيا في العلانية واغتنامها في السر ، فارفع طرفك من أجل فكرك • أطل اعتبارك • أصدق نفسك • اعبد ربك . جرد نيتك . أجب داعيك . قدم زادك . افهم وتفهم ربك • طهر سرك • ارقب رسولك • اصلح فاسدك • واعلم وتعلم وهاجر الى مولاك •

اللهم صل التوفيق بقولنا ، والتصديق بعملنا ، والتحقيق بقلوبنا ، ولا تكلنا الى حولنا وقوتنا ؛ ولا تحل بيننا وبين ما يقربنا منك ، ويدنينا من بابك ، ويجيرنا من عذابك . ونهدى الينا رضوانك ، ويفيض علينا غفرانك • الهنا هذه آمالنا فأعطناها ، وهذه امانينا فبلغناها • وهذه عطاياك فهنئناها •

اللهم انك قد دعوتنا فى الظاهر بلسان تكليفك، وغمرتنا بضروب حججك ، واسمعتنا محكم آياتك ، وشملتنا بأنواع خيراتك ، وملكت نواصــينا بقدرتك ، وأيدت المخبرين عنك المرشدين اليك ، لكنك ، يا ربنا طويت عنا ارادتك بنا ، وأخفيت حكمك لنا علينــا ، فبقينا حيارى، وهذه ربوبيتك المسلمة لك، وسلطانك المردود اليك ، لا معارض لك سبحانك، ولامعقب عليك سبحانك ، لكنا يا ربنا لا نستطيع حفظ أنفســنا على طرائق أمرك ونهيك الا ببوادى صنعك ولطفك ، فاكنفنا يا الهنا بالعصمة ، واحففنا يا ربنا بالنعمة ، واعطف علينا يا سيدنا ومولانا بالرحمة ، حتى نحوز رضاك ، وننال الفوز الاكبر فى ذراك .

« ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنــا لنكونن من الخاسرين » .

فهرس

الموضـــوع	الصفحة
في الطريق	٦٢
في الصفاء	٦٥
في المشاهدة	٦٨
في الحسـاسية	٧١
في النجـاة	٧٤
في المحبــة	٧٧
في هديه صلى الله عليه وسلم	٧٩
في التوحيد	٨١
في هدف الصوفية	٨٤
في الحياء	٨٧
في الذكر	٩٠
في الشكر	٩٣
في الصدق	٦٩
في العبودية	٩٩
في السفر	١٠٢
في الأدب	١٠٥
في الحرية	١٠٨
في الارادة	١١١
في الرضـا	١١٣
في الهوى	١١٧
في الاســتغفار	١٢٠
في الغيبــة	١٢٣
اسم الله الاعظم	١٢٦
في القناعة	١٢٩
في الانس بالله	١٣٢

الموضــــوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع ١٩٧٣/٣٠٦٦

❋ أحمد بهجت • المحــرر الأدبى للأهرام •

❋ صدرت له ست كتب هى مذكرات زوج ، وجه فى الزحام ، مذكرات صائم ، أنبياء الله (طبعة مختصرة) صائمون والله أعلم ، فى رحاب الله ، وتصدر له ست كتب هى تحت الطبع الآن ، انبياء الله (دراسة موسعة) ، يوميات نائم فى البلاج ، رحلة صيد فى أفريقيا ، كلمتين وبس ، حيوان له تاريخ مع الانبياء ، بحار الحب عند الصوفية •

« الثمن ٧ قروش »

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

